الفصل الثالث عشر

فردريك الأكبر وماريا تريزا

١ — استهلال امبراطورى : ١٧١١ — ٤٠

يبدو أن فولتير كان أول من لقب فردريك بـ « الأكبر » منذ عام ١٧٤٢ [1] Frédéric Le Grand وكانت العبارة جزءاً من ميثاق بالاعجاب المتبادل دام عشر سنين بعد ذلك التاريخ . ولكن إذا جاز للتاريخ أن ينحو نحو الشاعر هويتمان فى التهليل للمهزومين بنفخ الأبواق ، حق له أيضاً أن يلقب ماريا تريزا بالكبرى ، لأنها كانت واحدة من عدة ملكات فقن فى العصور الحديثة معظم الملوك وأزرين بهم .

ولنبدأ حديثنا عنها من خلال خلفيتها . فقبل أن تولد بست سنوات ارتقى أبوها الهابسبورجى (١٧١١) عرش « الأمبراطورية الرومانية المقدسة » وتسمى شارل السادس . وكان رأى فولتير فى هذه الدولة أنها لا تملك واحدة من هذه الصفات الثلاث ، ولكنها كانت لا تزال امبراطورية ، تكسوها مهابه تسعة قرون . وضمت هذه الدولة التى حكمت من فينا حكماً واهناً النمسا ، والمجر ، وبوهيميا (تشكسلوفاكيا) واستيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، والتيرول ؛ وفى ١٧١٥ بسطت سلطانها على الأراضى المنخفضة الإسبانية السابقة ، التى نعرفها الآن باسم بلجيكا ، ولم تكن الدويلات الألمانية فيها خاضعة للامبراطور إلا بالاسم ، ألما المدن الحرة الألمانية فقد اعترفت بسلطته فى شئونها الخارجية ، وكانت بوهيميا الآن فى اضمحلال ، فقد أشاع فيها الفوضى التعصب الدينى واستغلها الملاك الغائبون عن أرضها وأكثرهم يتكلمون لغة أجنبية ، أما المجر فكانت قد عانت من كونها أهم منطقة للصراع بين المسيحيين والعثمانيين ، عبرها أكثر من عشرة جيوش واستهلكوها ؛ وتقلص عدد سكانها ، واستشرت الفوضى فى حكومتها . ورفضت طبقة

من النبلاء كبيرة العدد حربية النزعة ، لم تعد مجرية الجنس إلا فى قسم منها ، أن تدفع الضرائب الامبراطورية ، وكرهت الحكم النمسوى . ولم يكن يملك أرضاً فى المجر سوى النبلاء والكنيسة ، فقسماها ضياعاً شاسعة يفلحها الأقنان ، وجنيا منها الدخول التى بنيا بها كبار الأديار والقلاع والقصور ، ورعيا الموسيقى والفن . وكان بعض النبلاء يمتلك خمسين ألف فدان للواحد ، وكانت أسرة استرهازى تملك سبعة ملايين فدان (٢) .

أما النمسا نفسها ، أكثر المستفيدين فى الامبراطورية ، فكانت تنعم بالرخاء . فبينما لم يزد سكان المجر على مليونين ، بلغ سكان النمسا زهاء ٦,١٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٤ زادوا إلى ٨,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٨٠٠ . وفيها هى أيضاً كانت الأرض ملكاً للنبلاء أو الاكليروس يفلحها الأقنان ؛ وقد عمرت القنية فى النمسا حتى ١٨٤٨ . وكان شأن الضياع فيها شأنها فى انجلتره يحتفظ بها ملاكها كاملة بحق البكورة ، الذى يقضى بأن تورث الأرض كلها للابن البكر ، أما الأبناء الأصغر منه فيعوضون بوظائف فى الجيش ، أو الكنيسة ، أو الإدارة ؛ وهكذا بلغت حاشية الامبراطور شارل السادس أربعين ألفاً ، ولم يكن فى النمسا طبقة وسطى غنية تتحدى سلطان الارستقراطية الطاغى أو تخفف من دمها الأزرق . وكانت الزيجات مسألة بروتوكول . وأبيحت الخليلات والعشاق بقانون غير مكتوب ، على ألا يجاوز هذا نطاق الطبقة . وقد كتبت اللادى مارى مونتاجيو من فيينا فى ١٧١٦ ، ربما بما يعهد فى الرحالة من مبالغات ، فقالت :

« من العادات الراسخة أن يكون لكل سيدة نبيلة زوجان ، أحدهما حامل الإسم والآخر القائم بالواجبات ، وهذه الارتباطات معروفة جداً حتى أن القوم يعدونها إهانة صريحة تشجب علناً أن تدعو امرأة من علية القوم إلى الغداء دون أن تدعو فى الوقت ذاته تابعيها هذين ... العشيق والزوج اللذين تجلس هى بينهما رسمياً فى وقار شديد ... والمرأة تتطلع إلى عشيق حالما تتزوج باعتباره جزءاً من حاشيتها (٣) . .

وكانت الطبقة الارستقراطية ، فى جميع أرجاء هذه الدولة التى كانت تتحول

الآن إلى امبراطورية نمساوية — مجرية تعمل ويدها فى يد الكنيسة ؛ ولعل النبلاء تقبلوا اللاهوت الكاثوليكى فى شىء من التحفظ والارتياب ، وكان العديد منهم ماسونا (٤) . ولكنهم ظلوا شاكرين على دين أعان بمثل هذه السماحة أقفانهم وبناتهم المجردات من المهور على الرضى بنصيبهم فى هذه الدنيا تعللا بالآخرة . وكان تنوع العقائد كفيلا بتشويش هذه العملية لو أبيح لأنه مفض إلى الجدل والشك ، أما التسامح الدينى فهو ولا ريب من خطل السياسة . وقد جعل فيرميان رئيس أساقفة سالزبورج الحياة فى رئاسة أسقفيته عسيرة على البروتستنت عسراً حمل ثلاثين ألفاً منهم على الهجرة ، فنزح معظمهم إلى بروسيا (١٧٢٢ — ٢٣) (٥) حيث شدوا من أزر عدو النمسا الصاعد . كذلك أسهمت هجرات أو حركات طرد مماثلة من بوهيميا فى الاضمحلال الاقتصادى لتلك الدويلة التى كانت يوما ما تعتز باستقلالها ، وعملت على تقدم ألمانيا البروتستنتية .

وشارك الأغنياء والفقراء فى تمويل عمارة العصر الكنسية . ففى براغ أكمل كيليان اجناز دينتسنهوفر أعظم المعمارين التشيكيين ، فى عمارة ضخمة فخمة ، كنيسة القديس نيقولا التى بدأها كريستوف دينتسنهوفر . وترك برهان برنارد فيشر فون إرلاخ ، أعظم المعماريين النمسويين ، بصمته على سالزبورج ، وبراغ ، وروما ، وشيد هو وابنه يوزف إيمانويل رائعة من الباروك فى كنيسة القديس شارل بفينا . وأبرزت الأديار الفخمة مجد الله ورفاهيات العزوبة . فكان هناك مثلا الدير البندكتى فى ملك على الدانوب حيث نشر ياكوب برانتاوير ومساعدوه (٦) مجمعاً يشتمل على مبان ، وأبراج ، وقبة ، وفى داخله القصور الفخمة والأعمدة الرائعة ، والزخرفة الفاخرة . وهناك دير القساوسة الأوغسطينيين القديم فى دورنشتين الذى أعاد بناءه (٧) بالباروكه الأنيق يوزف مونجناشت ؛ ويلاحظ أن أهم مفاخره — البوابة الرئيسية والبرج الغربى — من إنتاج متياس شتايندل . وهو مثال اتجه إلى العمارة وهو فى الثامنة والسبعين . وهناك كنيسة الدير البندكتى ومكتبته فى آلتنبورج (وبانيهما هو مونجناشت أيضاً) (٨) وهما مشهورتان بالزخارف المترفة . وهنـــاك دير الرهبان البندكتين فى تسفيتـــل ،

وهو من آثار القرن الثانى عشر ، وقد أقام فيه مونجناشت وشتايندل واجهة جديدة وبرجاً ومكتبة . (٩) أما الحورس الرائع فكان من صنع مايستريوهان فى ١٣٤٣ — ٤٨ ؛ هنا أظهر الطراز القوطى القديم تفوقه على الباروك الجديد . ثم هناك دير شتامز فى التيرول الذى أعاد بناءه (١٠) جيورج جومب ، والذى تميزه المصبعات الحديدية والزخارف الجصية فى بيت سلم « الأحبار » ؛ وهنا كان يدفن أمراء الهايسبورج . وهناك كنيسة الدير فى هوتسوجنبورج ، وهى الرائعة التى أبدعها فرانتس بن يوزف مونجناشت ، فى حياته القصيرة (١٧٢٤ — ٤٨) . وهناك كنيسة الدير فى فيلليرنج ، التى قيل فيها أنها « أبدع بناء بطراز الروكوك فى النمسا » . (١١) ونلاحظ فى مرورنا هنا الأراغن الرائعة فى هذه الكنائس كالتى فى هرتسوجنبورج وفيلليرنج ، والمكتبات الجملية ؛ ومن نماذجها مكتبة الدير البندكتى فى آدمونت ، المحتوية على ٩٤,٠٠٠ مجلد ، ١,١٠٠ مخطوطة فى هيكل من الزخرف الباروكى. لقد كان رهبان النمسا فى قمة مجدهم فى عصر الإيمان المتداعى الذى نحن بصدده .

وقد جارهم النبلاء بنفس الخطو . ففى النمسا والمجر ، كما فى ألمانيا ، كان كل أمير يتوق إلى ضريب لفرساى ؛ ومع أنه عجز عن منافسة ذلك البهاء المفرط فإنه جمع من الأسلاب ما أتاح له بناء « قصر » palais (كما كان يسميه) يعكس كل جانب ومظهر فيه سمو مكانته . فشاد أوجين أمير سافوى قصراً صيفياً على مستويين فى ضيعته خارج فيينا « بلفدير واطىء » (وهو الآن متحف الباروك) و « بلفدير عال » وضع تصميمهما الجميل يوهان لوكاس فون هلدبرانت . وصمم يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ قصر الأمير الشتوى (وتشغله الآن وزارة المالية) كذلك وضع تصميمات لقصر شونبرون وحدائقه لينافس بهما فرساى ، ولكن البناء الفعلى الذى بدأ فى ١٦٩٦ أغفل هذه التصميمات أو خفف منها أثناء تنفيذه . وصمم فيشر فون إرلاخ وابنه يوزف إيمانويل المكتبة الامبراطورية — وهى المكتبة القومية الآن — التى يرى إخصائى فى فن الباروك أن بها أبدع بناء داخلى لأى مكتبة فى العالم . (١٢) وفى ١٧٢٦ فتح شارل السادس هذا الكنز للجمهور وفى ١٧٣٧

اشترى لها مجموعة المخطوطات والكتب الهائلة التى كان يمتلكها أوجين أمير سافوى . لقد كانت فيينا ، إلى حد كبير ، أجمل مدينة فى دولة الجرمان .

وقد جمل أكثر العمارة النمسوية بالنحت . ونذكر هنا بجهل خجول تمثال « المسيح المصلوب » الخشبى الذى صنعه أندرية تاماش فى دير شتامز ، وتمثال الامبراطور فرانسيس الأول الرخامى الذى نحته بلقازار مول والمعروض فى متحف الباروك بفيينا ؛ وفى وسعنا أن نستشعر على البعد تفانى يوزف شتامل فى فنه ، إذ أنفق معظم حياته فى تجميل دير آدمونت بالتماثيل . ولكن كيف يغتفر لنا كل هذا الإبطاء فى التنويه بجيورج رفائيل دونير مثالا لا يفوقه بين مثالى العصر غير برنيتى ؟ فقد ولد فى اسلنجن بمنخفضات النمسا (١٦٩٣) وتلقى فنه على يد جوفانى جوليانى ؛ وبفضل هذه الوصاية الإيطالية اكتسب الميل الكلاسيكى الذى أتاح له تنقية ما فى الباروك النمسوى من إسراف . على أن تمثاله الرخامى « تمجيد شارل السادس » [١٣] مازال يعانى من غرابة الباروك وشططه — ففيه يرى الامبراطور وقد رفعه إلى السماء ملاك له ساقان خميلتان وثديان متألقان ؛ ومع ذلك فنحن شاكرون للفن أن أعاد للصاروفيم (الملاك) شيئاً ملموساً — وهو الذى خالته الفلسفة مجرداً من الجسد . ومن آيات دونير الجديرة بعصر النهضة تمثاله « القديس مارتن والشحاذ » فى كتدرائية برسبورج (براتيسلافا) ، ولمنحوتته الرخامية البارزة « هاجر فى البرية » [١٤] جمال كلاسيكى ناعم . وقد بلغ أوجه فى التماثيل التى صبها من الرصاص لنافورتين كبيرتين فى فيينا : نافورة « العناية الإلهية » فى السوق الجديدة ، التى تمثل أنهار النمسا ، ونافورة أندروميدا التى تنافس نافورة روما . وقبل أن يموت فى ١٧٤١ بعام بالضبط صب لكتدرائية جورك مجموعة تمثل بكاء مريم على جسد المسيح ؛ وهى مجموعة كانت خليقة بأن تشيع البهجة فى صدر رفائيل لأن دونير اتخذ اسمه .

ولم ينتج المصورون ولا الشعراء فى هذا العصر فى النمسا أو ممتلكاتها أى آثار تثير اهتمام العالم الخارجى ، وربما يستثنى من هذه القاعدة الصور الجصية التى صورها دانيل جران داخل قبة المكتبة الكبرى فى فيينا . أما فى الموسيقى فقد كانت فيينا المركز المعترف به للعالم الغربى . وكان شارل

السادس يعشق الموسيقى عشقاً لا يعلو عليه سوى حبه لبناته وعرشه . وقد لحن هو نفسه أوبرا ، وصاحب فارينيللى عازفاً على البيان القيثارى ، وقاد البروفات . وجلب لفيينا خيرة المغنين ، والعازفين ، والممثلين ، ورسامى المناظر المسرحية ، دون أن يعبأ بالتكاليف . وفى إحدى المناسبات أنفق — فيما قدرت الليدى مارى — ثلاثين ألف جنيه ليخرج أوبرا واحدة [١٥] . وبلغ عدد المرتلين والعازفين فى فرقة كنيسته ١٣٥ . وأصبحت الموسيقى « إمبراطورية » ، أو على الأقل أرستقراطية . وفى بعض الأوبرات كان جميع المشاركين — سواء العازفين المفردين ، أو الكورس ، أو الباليه ، أو الأوركسترا — أفراداً من الطبقة الارستقراطية . وفى إحدى هذه الحفلات كانت تقوم بالغناء فى الدور الرئيسى الأرشيدوقة ماريا تريزا [١٦] .

وقبل أعظم كتاب نصوص الأوبرا فى ذلك العهد الدعوة إلى فيينا فأقبل أبوستولو زينو من البندقية فى ١٧١٨ ، وعمل شاعراً لبلاط شارل السادس ، وفى ١٧٣٠ اعتزل فى لطف مخلياً مكانه لبيتروتراباسى ، النابولى الذى كان قد تسمى من جديد . « ميتاستاسيو » . وفى السنوات العشر التالية كتب ميتاستاسيو — بالإيطالية دائماً — مسرحيات شعرية بلغ من قدرتها على إثارة العواطف أن كبار ملحنى أوروبا الغربية أسعدهم أن يلحنوها . ولم يضارعه أحد فى تكييف الشعر وفق مطالب الأوبرا — أى فى ملاءمة موضوع نصه ، وحركته ، ومشاعره ، لمقتضيات المغنين المنفردين ، والثنائيين ، والمقاطع الملحونة ، والكوارس ، والباليهات ، والمناظر المسرحية ؛ ولكنه فرض لقاء ذلك على الملحنين التوافق الإيقاعى بين موسيقاهم ومسرحيته . وعظم نجاحه حتى خشى فولتير أن تطرد الأوبرا الدراما من المسرح ، وقال « إن هذا الوحش الجميل يخنق مليومين (ربة التراجيديا) » [١٧] .

وتربع شارل السادس على عرش كل هذه الموسيقى ، والفن ، والبلاط المتعدد اللغات ، والإمبراطورية ، بيد مبسوطة ، وقلب رحيم ، وحزن رجل الحرب . ذلك أن قواده لم يستطيعوا أن يتبعوا عصا قيادته ، وحين طالبهم بأغانى الفرح لم يعطوه غير المآسى . لقد جرت ريح الحرب مع النمسا رخاء ما دام أوجين أمير سافوى محتفظاً بقوة ذهنه وسلطانه ، وهو الذى

شارك ملبره صد جيوش لويس الرابع عشر ؛ فانتزعت بلغراد من العثمانيين ، وسردانيا من سافوى ، وميلان ونابلى والأراضى المنخفضة الإسبانية من أسبانيا . ورقى أوجين لا قائداً عاماً لجميع الجيوش النمساوية فحسب ، بل وزيراً أول ومديراً للدبلوماسية . والواقع أنه بسط سلطانه على كل شىء إلا الأوبرا ، ولكنه — وقد أذعن للناموس الذى يبلى أجساد البشر — أصاب الوهن عقله لا جسمه فحسب . وفى حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ — ٣٥) انزلقت النمسا إلى صراع مع فرنسا ، واسبانيا ، وسافوى (التى كانت تعرف آنئذ بمملكة سردانيا الصغيرة) وخسرت اللورين ، ونابلى ، وصقلية (١٧٣٥ — ٣٨) ، وأسفر تحالفها مع روسيا عن حرب أخرى مع تركيا ؛ وضاعت منها البوسنه ، والصرب ، والأفلاق ، وعادت بلغراد تركية من جديد (١٧٣٩) . ولم يؤت الامبراطور من المواهب ما يعوض به المواهب التى افتقدها معاونوه . وإليك رأى فردريك الأكبر فيه :

« أخذ شارل السادس من الطبيعة الصفات التى تصنع المواطن الصالح ، ولكنه لم يأخذ صفة من تلك التى تصنع الرجل العظيم . كان سمحاً دون تميز ، له روح محدودة دون بصيرة ثاقبة ؛ وكان قادراً على الانكباب على العمل ، ولكن دون عبقرية ، يجهد نفسه دون أن ينجز الكثير ، ويجيد معرفة القانون الألمانى ، وعدة لغات ، وقد نبغ فى اللاتينية على الأخص . وكان أباً صالحاً وزوجاً صالحاً ، ولكن شابه ما شاب جميع أمراء البيت المالك النمسوى من تعصب وميل للخرافة » [١٨] .

وكان عزاؤه وفخره فى كبرى بناته ماريا تريزا ، التى وطد العزم على توريثها عرشه : ولكن أباه ليوبولد الأول كان قد أبرم (١٧٠٣) « ميثاقاً متبادلا للوراثة » تقرر فيه أن يحكم الوراثة مبدأ حق الابن البكر ؛ فإذا لم يوجد وريث ذكر انتقل التاج إلى بنات ابنه جوزف (المولود فى ١٦٧٨) ثم إلى بنات ابنه شارل (المولود فى ١٦٨٥) . وترك موت جوزف الأول فى ١٧١١ دون وريث ذكر (ولكن بابنتين على قيد الحياة) التاج لشارل . وفى ١٧١٣ بمقتضى « أمر عال » أصدره شارل لمجلسه الخاص ، أعلن مشيئته بأن ينتقل عرشه وأملاكه الشخصية بعد وفاته إلى أكبر أبنائه الحى ،

فإذا لم يكن هناك ابن على قيد الحياة فإلى كبرى بناته . وقد ولد ابنه الوحيد ومات عام ١٧٢٦ . وبعد أن انتظر شارل عبثاً إنجاب آخر ، ناشد الدول الأوربية أن تتفادى نشوب حرب وراثة بقبولها وضمانها الجماعى لنظام الوراثة الذى وضعه . وفى الأعوام الثمانية التالية قبلت أمره العالى أسبانيا ، وروسيا ، وبروسيا ، وانجلتره ، وهولنده ، والدنمرك ، واسكندناوه ، وفرنسا .

ولكن مصاعب نشبت فصنعت كثيراً من التاريخ . ذلك أن سكسونيا وبافاريا كان على عرشيهما أميران متزوجان من ابنتى جوزف أخى شارل ، فطالبا الآن بوراثة عرش الامبراطورية عملا بميثاق ليوبولد الأول ، أما فردريك وليم الأول ملك بروسيا فوافق على أساس تأييد شارل له فى مطالبته بجزء من دوقيتى يولش وبيرج ويبدو أن شارل وافق على هذا الشرط ولكن سرعان ما بذل لمنافسى فردريك وليم وعوداً عكس هذا الوعد . وعليه انضم ملك بروسيا إلى أعداء الامبراطور (١٩) .

وفى ١٧٣٦ تزوجت ماريا تريزا من فرانسس ستيفن ، دوق اللورين ، وغراندوق توسكانيا فيما بعد (١٧٣٧) ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وفى ٢٠ أكتوبر ١٧٤٠ مات شارل السادس ، مختتماً بموته فرع الذكور فى بيت هابسبورج . واعتلت ماريا تريزا العرش بوصفها أرشيدوقة النمسا وملكة بوهيميا والمجر . وأصبح زوجها شريكاً لها فى الحكم ، وإذ لم يبد كبير اكتراث بشئون الدولة أو كفاءة تذكر للقيام عليها فقد وقع عبء الحكم كله على عاتق الملكة الشابة . وكانت فى عام ١٧٤٠ تملك كل مفاتن الأنوثة والملك ؛ قسمات بديعة ، وعيون زرق متألقة ، وشعر أشقر غزير ، ورقة فى السلوك ، وخفة فى الحركة ، ومتعة العافية ، وحيوية الشباب (٢٠) . وكان ذكاؤها وخلقها يفوقان هذه المفاتن كلها قصراً عن التصدى للمشكلات التى أحدقت بها من كل جانب . وكانت الآن حاملا فى شهرها الرابع بالطفل الذى سوف يخلفها باسم جوزف الثانى « المستبد المستنير » . ونازعها حقها فى العرش كل من شارل ألبرت ناخب بافاريا ، وفردريك أوغسطس الثانى ناخب سكسونيا ، وناصر حزب قوى فى فيينا القضية البافارية ، ولم يكن هناك تأكيد بأن المجر ستعترف بها ملكة عليها ، ولم تتوج بهذا الوصف حتى ٢٤

يونيو ١٧٤١ . أما خزانة الامبراطورية فخاوية إلا من ١٠٠,٠٠٠ فلورين ، زعمت الامبراطورة أرملة شارل السادس أنها ملك لها . وكان الجيش مختل النظام ، وقواده تعوزهم الكفاية . وكان مجلس الدولة مؤلفاً من أعضاء مسنين فقدوا القدرة على التنظيم أو القيادة . وانتشرت الشائعات بأن العثمانيين سيزحفون مرة أخرى على فيينا بعد قليل . [٢١] وطالب فليب الخامس ملك أسبانيا بالمجر ويوهيميا ، وملك سرداينا بلمبارديا ثمناً لاعترافهما بها [٢٢] . أما فردريك الثانى الذى أصبح ملكاً على بروسيا قبل تولى ماريا تريز العرش بخمسة شهور فقط ، فقد بعث إليها يعرض الاعتراف بها والدفاع عنها ودعم انتخاب زوجها امبراطوراً ، شريطة أن تنزل له عن الشطر الأكبر من سيليزيا ، فرفضت العرض ، ذاكرة ما كان أبوها يرجوه من بقاء المملكة سليمة لا تجزأ ولا يمسها سوء . وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٤٠ غزا فردريك سيليزيا ، ووجدت المملكة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً نفسها تخوض حرباً مع أقوى دولة فى ألمانيا ، ومع الرجل الذى قدرله أن يكون أعظم قائد فى عصره .

٢ — استهلال بروسى : ١٧١٣ — ٤٠

(أ) فردريك وليم الأول :

كانت أسرة هوهنتسارن قد نجحت فى رفع إمارة برندنبورج الناخبة إلى مملكة بروسيا فى ١٧٠١ ، وأصبح أميرها الناخب ملكاً باسم فردريك الأول . وقد أوصى بأن يرث ملكه بعد موته ابنه فردريك وليم الأول (حكم ١٧١٣ — ٤٠) . وكان الملك الجديد ، عن طريق زوجته صوفيا دوروتيا ، صهراً لجورج الأول الذى ارتقى عرش انجلتره فى ١٧١٤ . وكانت أملاك بروسيا تشمل بروسيا الشرقية ، وبومرانيا السفلى ، وإقليم الحدود المسمى برندنبورج (والمحيط ببرلين) وإقليم كليفز فى غربى ألمانيا ، وكونتية مارك ، ومدينة رافنزبيرج فى وستفاليا : وكلها أخلاط مفككة من البلاد تمتد امتداداً متقطعاً من الفستولا إلى الألب ، ولا تربط بينها غير قوات الملك . وبلغ سكان « بروسيا » هذه فى ١٧٤٠ نحو ٣,٣٠٠,٠٠٠ زادوا إلى ٥,٨٠٠,٠٠٠ فى نهاية القرن ، أما بنيانها الاجتماعى فكان إقطاعياً

فى أساسه : فلاحون يدفعون الضرائب والفروض الإقطاعية ، وطبقة وسطى ضعيفة ، وطبقة نبلاء تطالب بإعفائها من الضرائب ثمناً لتزويد الملك بالعون الحزبى . وكانت رغبة فردريك وليم الأول فى التحرر من الاعتماد على هؤلاء النبلاء بعض ما دعاه إلى تنظيم جيش دائم سيقرر التاريخ السياسى لأوربا الوسطى طوال نصف قرن .

كان فردريك وليم حاكماً شاذاً شذوذ ابنه الأشهر منه ، الذى يرجع معظم الفضل فى انتصاراته لجيش أبيه . ولم يوهب الوالد ولا الولد شخصية جذابة ساحرة ، ولم يسترضى أحدهما العالم بجمال طلعته أو لطف ابتسامته ، بل واجهه كلاهما بسحنة آمرة صارمة تسوس الجيوش : كان الأب قصيراً بديناً ، له وجه متورد تحت قبعة مثلثة ، وعينان تنفذان إلى صميم كل زيف وصوت يعلن عن إرادة صاحبه . وفكان على استعداد لطحن كل مقاومة . وإذ كان ذا شهية طيبة دون أن يكون ذواق للطعام ، فقد طرد طاهيه الفرنسى ، وأكل طعام الفلاحين ، وكان يستهلك الكثير فى وقت قصير دون احتفال يذكر لأنه كان فى شغل عن هذا بعمله . ورأى نفسه سيد الدولة وخادمها ، فعكف على تصريف شئون الحكم فى أمانة وسخط . لأنه وجد فيها الكثير المعوج المنحرف ، فأقسم أن يقومه بالقوة . واختصر إلى النصف عدد كبار الموظفين المغرورين الذين عطلت سلطاتهم المتضاربة عمل الحكومة ، وباع ما ورثه من مجوهرات ، وخيول ، وأثاث فاخر ، واختزل مظاهر بيت الملك إلى بساطة بيت المواطن من أهل المدن ، وجمع الضرائب أينما أمكن تنميتها ، وخلف لفردريك الثانى خزانة مملوءة إلى حد مغر .

وأراد من كل إنسان أن يكد ويكدح مثله ، فأمر موظفى البلديات بأن يراقبوا أخلاق السكان ، ويبشروا بالجد والاقتصاد ، وأن يؤدبوا المتشردين بالأشغال الشاقة وبسط إشراف الدولة على التجارة والصناعة ، ولكنهما وجدتا التشجيع فى تحسن حال القنوات والطرق . وفى ١٧٢٢ أصدر الملك اليقظ أمراً يقرر التعليم الإلزامى ففرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة ، فما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كانت بروسيا تتصدر أوربا كلها فى التعليمين الابتدائى والثانوى [٢٣] . وألقيت البذرة لعصر كانط وجيته .

وحين تبين فردريك وليم أن الأتقياء من الناس يعملون بأثبت مما يعمل الشكاك ، أيد الحركة التقوية . وتسامح مع الكاثوليك على مضض وأخبر الكلفنيين بأن يكفوا عن التبشير بكآبة مذهبهم الجبرى ، وأمر اللوثريين بأن يستعملوا الألمانية بدل اللاتينية فى طقوسهم ، وأن يقلعوا عن ارتداء المدرعات « والبطرشيلات » وعن رفع القربان أمام المصلين ، باعتبار هذه كلها من مخلفات البابوية . ولما أكره رئيس أساقفة سالزبورج خمسة عشر ألف بروتستنتى على الهجرة ؛ رحب بهم فردريك وليم وأقرضهم المال رحلتهم التى قطعوا فيها خمسمائة ميل ، وأجر لهم الأراضى (ولم تكن من خيرة أرضه) إلى أن تؤتى أرضهم غلاتها . واستقدم خمسة عشر ألف مهاجر آخرين من سويسرة والدويلات الألمانية . وهكذا ردت بروسيا إلى الحياة الاقتصادية بعد أن دمرتها حرب الثلاثين .

كانت الرغبة العارمة التى دفعت الملك إلى هذا النشاط هى تأمين الأمة فى عالم لا يكف عن الحرب . فحين تقلد فردريك وليم السلطة كانت الحرب الشمالية الكبرى ما تزال مستقرة ، تشتبك فيها السويد ، وروسيا وبولنده ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبعد قليل انجلتره ، وكانت العبرة الواضحة من هذه الحرب أنه لا غنى عن جيش قوى للسلم ، وسط عالم يسوده السطو المؤمم . وكان ملك بروسيا تواقاً إلى الحصول على ستتن ثغرا لتجارة برلين ، فاشتراها بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ طالر من الدول التى انتزعها من شارل الثانى عشر . ولكن شارل رفض عقب عودته من تركيا أن يعترف بهذا البيع لبضاعة مسروقة ، فعرض فردريك وليم أن يردها للسويد نظير الـ ٤٠٠,٠٠٠ طالر التى دفعها ، ولم يكن شارل يملك المال ، ولكنه أصر على استرداد ستتن ، فأعلنت بروسيا الحرب عليه (١٧١٥) وانضمت إلى أعوانه فى حصار شترالزوند . وفر شارل إلى السويد ونصف العالم ضده ، وأدركه الموت هناك . وعاد فردريك وليم إلى برلين وستتن فى جيبه ، وبريق الانتصار فى عينيه .

بعد هذا أصبح الجيش شغله الإدارى الشاغل . ولم يكن بالرجل العسكرى النزعة تماماً ، ولا كان مقاتلا قط ، ولم يخض حرباً بعد ذلك بتاتاً ، ولكنه

عقد العزم على ألا يخوض أحد حرباً ضده وهو فى مأمن . فلقد كان هذا الرجل الذى بنى أشهر جيش فى ذلك القرن « من أعظم الملوك حباً للسلام » (٢٤) وهو القائل أن مبدئى ألا أؤذى أحداً ، على ألا أسمح بأن يستهين بى أحد » (٢٥) ومن ثم راح يجمع الجند ، ويطلب أطول من يجد منهم قامة فى ولع شديد ؛ وكان يكفى للظفر بمودته أن يرسل له إنسان رجلا طوله ستة أقدام على الأقل وكان الملك يسخو فى دفع ثمنهم ويبتهج قلبه لقوامهم الفارع . ولم يكن أكثر جنوناً بالجيوش من زملائه الملوك ، إلا فيما يتصل بطول الجندى . فقد كان لفرنسا مثلا فى ١٧١٣ من الجند النظاميين ١٦٠,٠٠٠ ، ولروسيا ١٣٠,٠٠٠ ، وللنمسا ٩٠,٠٠٠ (٢٦) . ولكى يرفع فردريك وليم عدة جيشه إلى ٨٠,٠٠٠ فى بلد لا يزيد سكانه على ثلاثة ملايين ، جند الجند من الخارج وفرض التجنيد الإجبارى فى أرض الوطن ، وقاوم الفلاحون وسكان المدن الإكراه على الخدمة العسكرية ، فكانوا يؤخذون بالحيلة أو القوة ؛ وحدث مرة أن اقتحم ضابط من فرق التجنيد كنيسة وساق أطول الرجال وأقواهم رغم توسلاتهم . (٢٧) (ولنذكر أننا نحن أيضاً نفرض التجنيد الإجبارى) وكان الرجال إذا انخرطوا فى سلك الجندية يجدون الرعاية الطيبة ، ولكنهم أخضعوا لنظام قاس وتدريب شاق ؛ وكان الجلد هو العقاب حتى لصغار الذنوب .

وطبق التجنيد الإجبارى على النبلاء أيضاً ، ففرض على كل نبيل سليم البدن أن يخدم فى الجيش ضابطاً ما دام يطيق الخدمة العسكرية . وكان هؤلاء الضباط يدربون تدريباً خاصاً ، ويخصهم الملك بالتكريم . فأصبحوا طبقة حاكمة يحتقرون التجار ، والمعلمين ، ورجال الدين ، والطبقات الوسطى عامة ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى طبقات دينا مستضعفة ، وكثيراً ما كانوا يعاملونهم بوقاحة وتفاخر ، أو بوحشية وضراوة . ولكنهم دربوا المشاة والمدفعية والفرسان فى تشكيلات دقيقة وحركات طيبة لم يعرفها قط أى جيش حديث آخر فى أغلب الظن . وشارك الملك ذاته فى هذه المناورات العسكرية ، وأشرف على تدريب جنوده فى تدقيق وحب ؛ فلما ولى فردريك الثانى العرش

وجد تحت إمرته قوة من الرجال مهيأة للخدع الحربية والغنائم ، متجاهلة فى لحظة كل دروس السلام التى تعلمها الأمير من الفلسفة .

(ب) فرتز الصغير :

كان « جاويش تدريب الأمة البروسية العظيم » (كما وصف كارليل فردريك وليم الأول) [٢٨] ، أباً لعشرة أطفال أكبرهم فلهلمينا . والمذكرات التى خلفتها عند وفاتها (١٧٥٨) هى أكثر مصادرنا مباشرة ووثوقاً عن تاريخ أخيها الباكر . وربما أسهبت بتركيز انتقائى فى ذكر قسوة مربيتها ، وأنانية أمها الجافية ، ووحشية أبيها ، وأوامره الاستبدادية فى أمر زواجها ، ومعاملته الصارمة للفتى فرتز الذى أحبته مفخرة وعزاء لحياتها [٢٩] . قالت « لم يوجد حب نظير حبنا الواحد للآخر لقد أحببت أخى حباً جماً وحاولت على الدوام أن أدخل السرور على قلبه » [٣٠] .

وكان فردريك ، المولود فى ٢٤ يناير ١٧١٢ ، يصغرها بثلاثة أعوام . ولم يرضى عنه أبوه ولا أمه . فقد جهدا ليصنعا منه قائداً وملكاً ، أما هو فأبدى كل إمارة على أنه سيصبح شاعراً وموسيقياً . وبين أيدينا التعليمات التى أعطاها فردريك وليم لمعلمى ولده . قال :

« اغرسوا فى ولدى ما يجب من محبة الله وخشيته باعتبارهما الأساس والركن الركين لخيرنا الزمنى والأبدى . فلا تذكروا على مسمعه أبداً أى أديان زائفة أو مذاهب إلحادية ، أو أريوسية ، أو سوسينية ، أو ما شاكل ذلك من أسماء لهذه السموم التى تستطيع إفساد العقل الحدث بسهولة كبيرة (وقد أصبح فردريك كل هؤلاء) . ومن ناحية أخرى يجب أن يعلم ما يجب من استنكار للبابوية وبصر بما تفتقر إليه من أساس وما فيها من سخف ...

وليتعلم الأمير الفرنسية والألمانية .... دون اللاتينية ... وعلموه الحساب ، والرياضة ، والمدفعية ، والاقتصاد ، بتعمق ... والتاريخ على الأخص ... وكلما شب زيدوه علماً بالتحصينات ، وتشكيل المعسكر ، وغير ذلك من علوم الحرب ، ولكى يدرب الأمير منذ صباه على أن يعمل ضابطاً وقائداً . . . اغرسوا فى ولدى الحب الصادق لمهنة الجندى ، وأقنعوه

بأنه لما كان السيف هو الشيء الوحيد الذى يكسب الأمير الشهرة والشرف ، فإنه سيكون مخلوقاً محتقراً من خميع الناس إذا لم يحبه ويلتمس فيه فخره الوحيد »[٣١] .

ولو أفسح للأب فى أجله بما يكفى لتاه فخراً بولده جندياً وقائداً ، ولكن كل شيء بدا وكأنه يسير فى طريق خطأ خلال سنوات التلمذة تلك . فقد كان الغلام ذكياً ، ولكنه لم يهتم قط بالهجاء . احتقر اللغة الألمانية وأحب لغة فرنسا وأدبها وموسيقاها وفنها ، وأحب أن ينظم الشعر الفرنسى ، وواصل هويته تلك إلى آخر عمره . وكان الملك الشيخ يستشيط غيظاً إذا رأى ولده وبيده كتب فرنسية ، ويزداد غضبه حين يجده يعزف على الفلوت . وجاء يوهان كوانتش ، عازف الفلوت فى بلاط سكسونيا ، إلى برلين ليعلم الصبى خفية بناء على طلب أمه . وكان كوانتش إذا سمع الملك يدنو يختبىء فى خزانة ، ويقلب فردريك روبه الفرنسى إلى سترة حربية ، ولكن الأب كان يثور لمرأى الكتب الفرنسية ملقاة هنا وهناك ، فأمر الخدم أن يرسلوها إلى بائع كتب ، فبيعها خير من حرقها . ولكن الخدم لم يفعلوا هذا ولا ذاك ، بل خبأوا الكتب ، وبعد قليل أعادوها للأمير .

وبذل الشيخ قصارى جهده الذى اختلطت فيه محبة الأب بغضبه ليجعل الصبى مقاتلا . فاصطحبه فى رحلات صيده ، وخشنه بحياة الخلاء ، وعوده الخطر والركوب الوعر ، وألزمه العيش على الطعام الزهيد ، والنوم القليل ، ووكل إليه أمور فوج فى جيشه ، وعلمه أن يدرب جنده ، وأن يرقى بطارية مدفعية ، وأن يطلق المدافع . وتعلم فردريك هذا كله ، وأبدى قدراً كافياً من الشجاعة ، ولكن الأب تبين بغضب متزايد أن الفتى ، الذى بلغ الآن السادسة عشرة راح يكون صداقة حميمة مريبة مع ضابطين شابين هما الكبتن فون كاتى والملازم كابت . وكان كاتى واسع الاطلاع كثير الرحلات ، ورغم ما تركه الجدرى على وجهه من ندوب ، فإن « تهذيب عقله وسلوكه » كما قالت فلهلمينا جعله » رفيقاً لطيفاً جداً ... وكان يفخر بأنه حر الفكر . وتأثير كاتى هو الذى دمر كل إيمان دينى فى صدر أخى »[٣٢] .

ولم يستطع فردريك وليم أن يستجيب لهذه التطورات المنحرفة فى ابنه

البكر إلا بالغضب والعنف . وكان ديدنه استعمال العصا مع خدمه ، فهدد باستعمالها لتأديب ولده . وكانت فلهلمينا خلال ذلك تقاوم خططه لتزويجها لحليف سياسى قوى ؛ وبدا أن الولد والبنت أرسلهما القدر ليخيبا كل آماله . « لقد بلغت ثورة أبى على أخى وعلى مبلغاً جعله يقصينا عن حضرته فيما عدا ساعات الطعام . وحدث ذات مرة أن الملك قذف رأس أخى بطبقه ، وكان يمكن أن يصيبه لولا أنه حاد عنه ، وفى مرة أخرى قذف الطبق على وقد نجوت منه أنا أيضاً لحسن حظى ، ثم انهال على بوابل من السب والشتم ... وإذ مررت أنا وأخى على مقربة منه لنبرح الحجرة دفع نحونا عكازه ليضربنا . ولم يكن يرى أخى قط دون أن يهدده بعصاه . وكثيراً ما قال لى فرتز إنه قد يحتمل كل معاملة سيئة إلا أن يضرب ، فإذا بلغ الأمر حد الضرب فإنه سيهرب (٣٣) .

وفى وسعنا أن نفهم بعض أسباب الغضب الذى استشعره الملك المسن . ذلك أنه كان قد تطلع إلى ترك ملكه هذا الذى أعاد تنظيمه لولد يواصل رعايته للجيش ، ويقتصد فى النفقات ، ويبنى الصناعات ، ويصرف شئون الدولة بأمانة واجتهاد ، ولم يكن ممكناً أن نتوقع منه التنبؤ بأن ابنه هذا سيفعل هذا كله وأكثر منه . فهو لم يجد فى « فريدرش » غير فتى وقح مخنث ، يجعد شعره كالفرنسيين بدلا من أن يقصه كالجنود البروسيين (٣٤) ، ويمقت الجنود والصيد ، ويهزأ بالدين ، وينظم الشعر الفرنسى ، ويعزف على الفلوت . فأى مستقبل يمكن أن يكون لبروسيا إذا حكمها هذا الفتى الضعيف ؟ وحتى التماساته للعفو بين الحين والحين يمكن أن يفسرها أبوه بأنها جبن منه . وذات مرة قال الملك لمن حوله بعد أن لكم أذنى ولده إنه لو لقى مثل هذه المعاملة من أبيه لضرب نفسه بالرصاص ؛ ولكن فريدرش لا يملك الإحساس بالشرف وإنه على اســـتعداد لاحتمال أى شىء (٣٥) .

وحاول الملك — إذا صدقنا الخبر الذى أنهاه فردريك إلى فلهلمينا — أن يقتله فى بوتسدام فى ربيع ١٧٣٠ . قال :

أرسل فى طلبى ذات صباح . فما إن دخلت الحجرة حتى أمسك بناصيتى وطرحنى أرضاً . وبعد أن ضربنى بقبضته جرنى إلى النافذة وربط حبل

الستارة حول عنقى — وأتيح لى لحسن الحظ وقت للنهوض والإمساك بيديه ، ولكنه جذب الحبل بكل قوته حول عنقى فشعرت بأننى أختنق وصحت مستغيثاً . وجرى تابع ليسعفنى ، واضطر إلى استعمال القوة لينقذنى [٣٦] .

وأسر فريدرش — الذى بلغ الثامنة عشرة — إلى فلهلمينا أنه ينوى الهروب إلى انجلتره مع كاتى وكايت . فتوسلت إليه ألا يفعل ، ولكنه أصر . وكتمت سره فى خوف ، ولكن الملك الذى أحاط ولده بالجواسيس علم بأمر المؤامرة ، وقبض على ابنه وابنته ، وعلى كاتى وكايت (أغسطس ١٧٣٠) . وأطلق سراح فلهليمنا بعد حين وفر كايت إلى انجلتره ، ولكن فريدرش وكاتى حوكما أمام مجلس عسكرى وحكم عليهما بالإعدام (٣٠ أكتوبر) . وأعدم كاتى فى فناء قلعة كوسترين (وهى الآن كوسترزين فى بولنده) وأكره فريدرش بأمر أبيه على أن يشهد منظر الإعدام من نوافذ زنزانته (٦ نوفمبر) . وفكر الملك فى قطع رأس ولده ، وفى جعل من يليه من أبنائه ولياً للعهد ، ولكنه خشى الأصداء الدولية لهذه الفعلة ، فراض نفسه على الإبقاء على حياة فريدرش .

ومن نوفمبر ١٧٣٠ إلى فبراير ١٧٣٢ ظل الأمير يلزم كوسترن ، فى سجن محكم أول الأمر ، ثم فى حدود المدينة لا يبرحها ، تحت رقابة مشددة طوال الوقت ، ولكن « برلين كلها أرسلت إليه المؤونة لا بل أفخر الطعام والشراب » . [٣٧] فى رواية فلهليمينا . وفى ١٥ أغسطس ١٧٣١ ، بعد عام من الفراق ، جاء الملك ليرى ابنه ، وقرعه ما شاء له التقريع . وقال له إن مؤامرة الهروب لو نجحت « لألقيت إلى الأبد فى مكان لا ترى فيه الشمس أو القمر ثانية . [٣٨] وجثا فريدرش على ركبتيه والتمس الصفح من أبيه ، وانهار الشيخ ، وبكى ، وعانقه ؛ وقبل فريدرش قدمى أبيه . [٣٩] فأطلق سراحه ، وبعث به فى جولة بالأقاليم البروسية ليدرس اقتصادها وإدارتها . لقد غيرت سنوات صراعه مع أبيه تلك من خلقه وقسته .

أما فلهلمينا التى أبهجها أن تترك سقف أبويها فقد قبلت يد هنرى ولى عهد بايرويت . وبعد أن تزوجا فى برلين (٣٠ نوفمبر ١٧٣١) ذهبت إلى الجنوب لتصبح (١٧٣٤) أميرة بايرويت ، ولتجعل بلاطها يزخر بالثقافة.

وفى فترة سلطانها هناك تحول المسكن الأميرى ، وهو قلعة إيريميتاج ، إلى قصر ريفى (شاتو) من أجمل القصور الريفية فى ألمانيا .

وكان على فريدرش هو أيضاً أن يتزوج ، رضى أم كره . وقد ساءه هذا الإلزام ، وهدد قائلا « لو أصر الملك على هذا فسأتزوج طاعة له ، ثم أدفع بزوجتى إلى ركن من الأركان وأحيا كما أشتهى . » (٤٠) وعليه فقد قاد إلى مذبح الكنيسة (١٢ يونيو سنة ١٧٣٣) إليزابث كرستينا « أميرة برنزويك — بيفرن الجليلة » وكان يومها فى الحادية والعشرين وهى فى الثامنة عشرة ، « جميلة جداً » كما قالت أم فردريش لفلهلمينا ولكنها « بليدة كحزمة من القش — ولست أدرى كيف ينسجم أخوك مع هذه الإوزة » . (٤١) ومع أن فردريك تعلم فى سنوات لاحقة أن يقدرها تقديراً كبيراً ، إلا أنه فى هذه الفترة تركها أكثر الوقت وحيدة تلتمس لنفسها السلوى . وذهبا ليسكنا فى راينزبرج ، على أميال شمال برلين . هناك بنى الزوج الأعزب لنفسه حصناً يلوذ به ، وأجرى التجارب فى الفيزياء والكيمياء ، وجمع العلماء ، والأدباء ، والموسيقين ؛ من حوله ، وتبادل الرسائل مع فولف ، وفونتنيل ، وموبيرتيوى ، وفولتير .

(ج) الأمير والفيلسوف : (١٧٣٦ — ٤٠)

ورسائله مع فولتير من أعظم وثائق ذلك العهد كشفاً وإنارة : فهى تعبير أدبى رائع لشخصيتين بارزتين يتضاءل فيه فن أكبرهما سناً أمام واقعية الفتى المتفتح . كان فولتير الآن فى عامه الثانى والأربعين ، وفردريك فى الرابعة والعشرين . وكان فولتير زعيم الأدباء الفرنسيين غير منازع ، ولكن كاد يدير رأسه أن يتسلم من ولى عهد سيرتقى العرش بعد حين الخطاب التالى الذى كتبه من برلين فى أغسطس ١٧٣٦ وأرسله مع رسول خاص إلى الشاعر فى سيريه :

سيـــدى :

مع أنه لم يتح لى سرور التعرف إليك شخصياً فإن ذلك لايقلل من معرفتى بك من خلال آثارك . فهى كنوز عقلية إذا جاز القول ، وهى تكشف

للقارىء عن مواطن للجمال عند كل قراءة جديدة لها ... ولو بعث الخلاف حول فضائل المحدثين والقدامى من جديد ، لدان عظماء المحدثين لك ، ولك وحدك ، بالفضل فى رجحان كفتهم ... فلم يحدث قط أن نظم شاعر مسائل الميتافيزيقا فى إيقاع منغم ، وقد حفظ لك أنت شرف السبق فى هذا المضمار.»

وواضح أن فردريك لم يكن قد قرأ لوكرتيوس بعد ، ربما لضآلة إلمامه باللاتينية ، ولكنه قرأ فولف ، وأرسل إلى فولتير :

« صورة من اتهام ودفاع السيد فولف ، أشهر فلاسفة زماننا ، الذى يتهم اتهاماً قاسياً بالمروق عن الدين والإلحاد لأنه حمل النور إلى أحلك أركان الميتافيزيقا .... وقد طلبت ترجمة لكتاب فولف « رسالة عن الله . والنفس ، والعالم .... وسأوافيك بها » .

هذا وإن ما تقدمه من عطف ومعونة لجميع من يكرسون أنفسهم للآداب والعلوم يجعلنى آمل أن تسلكنى فيمن تراهم جديرين بإرشاداتك .... »

والظاهر أن فردريك كان قد سمع بعض ما شاع عن قصيدة فولتير « لابوسيل » : (عذراء اللورين) .

سيدى ؛ لست أشتهى شيئاً اشتهائى لاقتناء جميع كتاباتك .... وإذا كان بين مخطوطاتك ما تود ستره عن أعين الجماهير فإنى أتعهد بالاحتفاظ به سراً مكتوماً ...

إن الطبيعة إذا شاءت كونت نفساً عظيمة ذات قدرات تدفع الآداب والعلوم قدماً ، وواجب الأمراء أن يكافئوا الجهد النبيل الذى يبذله صاحب هذه النفس وليت « المجد » يستخدمنى لأكلل نجاحك .....

وإذا أبى حظى أن يسعدنى بالقدرة على الاستيلاء عليك ، فعسانى على الأقل أرى يوماً ما ذلك الرجل الذى طالما أعجبت به من بعيد ، وأؤكد لك ، بلسانى . أننى مع كل التقدير والاعتبار الواجبين للذين يكرسون جهودهم للجماهير مهتدين فى ذلك بمشعل الحق — يا سيدى صديقك المخلص ،

فريدريك ولى عهد بروسيا

وفى وسعنا أن نتصور شعور الاغتباط الذى قرأ به فولتير هذا الخطاب ،

وهو الذى لم يكبر قط على الغرور ، فراح يرشف رحيقه أمام المركبزة الغيور . وبادر بعد تسلمه بالرد عليه فى ٢٦ أغسطس ١٧٣٦ :

مولاى :

لابد أن يكون إنساناً مجرداً من كل عاطفة ذلك الذى لا يتأثر تأثراً بالغاً بالخطاب الذى شئتم سموكم الملكى تشريفى به . فمحبتى لذاتى تزهو به زهواً شديداً ؛ ولكن محبتى للبشر ، التى غذوتها دائماً فى قلبى ، والتى أجرؤ على القول بأنها أساس خلقى ، منحتنى سروراً أعظم نقاء وصفاء — لأننى أرى أن فى الدنيا الآن أميراً يفكر كإنسان ، أميراً فيلسوفاً ، سوف يسعد الناس .

واسمح لى بأن أقول أنه ليس على وجه الأرض إنسان لا يدين لك بالشكر على العناية التى تبذلها لكى تهذب بالفلسفة السليمة نفساً ولدت لتأمر وتنهى . إذ لم يوجد بين الملوك صالح إلا أولئك الذين بدأوا بمحاولة تعليم أنفسهم ، وبتبين خيار الناس من أشرارهم ، وبحب ما هو حق ، وبمقت الاضطهاد والخرافة . وإن أميراً يثابر على هذه الأفكار قد يعيد العصر الذهبى إلى بلده! ترى لم لا يسعى إلى هذا المجد إلا قلة قليلة من الأمراء ؟ .... لأنهم يفكرون فى ملكهم أكثر مما يفكرون فى النوع الإنسانى . أما حالك فنقيض هذا بالضبط ؛ (وما لم يغير ضجيج العمل ولؤم البشر يوماً مامن هذا الخلق الإلهى) (*) فإن شعبك سيعبدك ، والعالم كله سيحبك ، والفلاسفة الجديرين بهذا الاسم سيؤمون دولتك ، والمفكرين سيتزاحمون حول عرشك .... لقد تركت الملكة كرستينا الشهيرة ملكها طلباً للآداب والفنون ، فاملك إذن يا مولاى ، وستقبل الآداب والفنون ساعيه إليك ...

ولست أجد من الشكر لسموكم المعانى ما يكفى على إهدائى ذلك الكتيب عن السيد فولف . وإننى أحترم الأفكار الميتافيزيقية ، فهى أشعة من نور تتخلل الليل الدامس . وفى رأيى أننا يجب ألا ننتظر من الميتافيزيقيا أكثر من هذا . ولا يبدو أن من المحتمل الكشف إطلاقاً عن الأصول الأولى للأشياء . فالفيران التى فرض عليها البقاء فى ثقوب صغيرة من بناء هائل لا تدرى هل

(*) العبارة المحصورة بين القوسين مضافة .

البناء خالد أم غير خالد ، أو من بناه ، أو لم بناه . وما أشبهنا بهذه الفيران ، والبناء الإلهى الذى بنى الكون لم ينبىء أحداً منا قط يسره المكنون فيما أعلم ..

سأصدع بأمرك وأبعث إليك بتلك الكتابات التى لم تنشر . وستكون أنت يا مولاى جمهور قرائى ، وسيكون نقدك مكافأتى ، فهذا ثمن لا يقدر على دفعه من الملوك والأمراء إلا الأقلون . وأنا واثق من كتمانك سرها ... وإنى فى الحق أراها سعادة غالية أن آتى لأقدم احترامى لسموكم الملكى ... لولا أن الصداقة التى تبقينى فى هذه الخلوة لا تسمح لى بمغادرتها ، ولاشك أنكم توافقون جوليان ، ذلك الرجل العظيم المفترى عليه كثيراً ، على قوله « ينبغى أن يفضل الأصدقاء دائماً على الملوك . »

وثق يا مولاى أنه أياً كان ركن الأرض الذى سأختتم فيه حياتى ، فإن تمنياتى ستكون دائماً لك — أى لسعادة شعب بأكمله . وسيعد قلبى نفسه واحداً من رعاياك ، وسيكون مجدك دائماً عزيزاً على . وسأتمنى أن تكون دائماً كما أنت ، وأن يكون الملوك الآخرون مثلك — وإننى مع عميق الاحترام خادم سموكم الملكى المتواضع جداً .

فولتير (٤٣)

واتصلت الرسائل بين أعظم ملوك زمانه وأعظم أدبائه طوال اثنين وأربعين عاماً ، مع انقطاعات أليمة تخللتها . وتكاد كل كلمة فى هذه الرسائل تجزى قراءتها ، لأنه لا يتاح لنا كثيراً امتياز الاستماع إلى رجلين كهذين يتحدثان هذا الحديث الحميم المدروس . ونحن نصد أنفسنا بصعوبة عن إغراء نقل ما فى هذه الرسائل من الأحكام المنيرة ، ومن آيات الذكاء ؛ ولكن بعض فقراتها تعيننا على تصور هذين العملاقين المتنافسين ، رب السيف ورب القلم . (*)

(*) الاشارات التالية للترجمة الانجليزية للرسائل التى قام بها رتشرد أولدنجتن بعنوان :
The Letters of Voltaire and Frederick The Great (New York 1927)
رسائل فولتير وفردريك الأكبر (نيويورك ؛ ١٩٢٧) والتى نزكيها بقوة .

فهما بادىء ذى بدء يتفقان فى إعجاب الواحد منهما بصاحبه . ففردريك يعرب عن دهشته لأن فرنسا لم تتبين « الكنز المخبوء فى قلبها » ، ولأنها تترك فولتير « يعيش وحيداً فى صحارى شامبين ... ومنذ الآن ستصبح سيريه (معبدى) دلفى ، ورسائلك وحيي المقدس . » (٤٤) « اترك وطنك الجاحد ، وتعال إلى بلد يعبدك فيه أهله » . (٤٥) ويرد فولتير باقات الزهر بأجمل منها ، فيقول « إنك تفكر كتراجان ، وتكتب كبليني ، وتستعمل الفرنسية كأحسن كتابنا . . . ستكون برلين بفضل رعايتك أثينة ألمانيا ، بل ربما أوربا » (٤٦) . وهما متفقان على الربوبية ، يؤكدان الإيمان بالله ويعترفان بأنهما لا يعرفان عنه تعالى شيئاً قط وهما بمقتان رجال الدين الذين يقيمون سلطانهم على ما يزعمون من قرب من الله (٤٧) . ولكن فردريك مادى صريح (« الشىء المؤكد هو أننى ، مادة ، وأننى أفكر » (٤٨) وجبرى خالص ؛ أما فولتير فليس مستعداً بعد للتخلى عن فكرة حرية الإرادة . (٤٩) وينصح فردريك « بالصمت العميق إذاء القصص الخرافية المسيحية ، التى قدسها قدمها وغرارة الناس السخفاء والتافهين » (٥٠) ولا يترك فولتير فرصة يلقن فيها تلميذه الأمير حب الإنسانية وكراهية الخرافة ، والتعصب ، والحرب أما فردريك فلا يأخذ الإنسانية مأخذ الجد الشديد : « إن الطبيعة تنجب بطبيعتها اللصوص ، والحساد ، والمزورين ، والقتلة ؛ فهم يغطون وجه البسيطة ، ولولا القوانين التى تقمع الرذيلة لاستسلم كل فرد لغرائزه الفطرية ولما فكر إلا فى نفسه » (٥١) .... والبشر بطبيعتهم ميالون إلى الشر ، وهم ليسوا أخياراً إلا بقدر ما تهذب التربية والتجربة من عنفهم وطيشهم (٥٢) .

وقد تميزت السنوات الأخيرة فى تلمذة فردريك بحدثين . ففى ١٧٣٨ انضم إلى جماعة الماسون . (٥٣) وفى ١٧٣٩ ، وهو فى نشوة من تأثير فولتير فيما يبدو ، ألف كتيباً سماه « الرد على كتاب الأمير لمكيافللى » حاسب فيه الفيلسوف الإيطالى حساباً عسيراً على ما بدا فى كتابه من تبرير لأى ذريعة يراها الحاكم ضرورية لصيانة دولته أو دعمها . وقال الأمير الجديد ، لا ، فالمبدأ الحق الوحيد للحكم هو ولاء الملك وعدله وشرفه . وقد أعرب الفيلسوف الأمير عن احتقاره للملوك الذين يؤثرون « مجد الفاتحين المهلك على المجد

الذى يكسب بالعطف والرحمة . » ، وتساءل ما الذى يغرى إنساناً بأن يطلب عظمته الشخصية بإشقاء غيره من الناس وتدميرهم . » (٥٤) ومضى فردريك يقول :

إن مكيافللى لم يفهم طبيعة الملك الحقة ... فهو ليس السيد المطلق المتصرف فيمن يدينون لحكمه ، إنما هو أول خدامهم ، وينبغى أن يكون الأداة لرفاهيتهم كما أنهم الأداة لمجده . (٥٥)

ثم أطرى فردريك الدستور الإنجليزى مقتدياً بفولتير على الأرجح :

يبدو لى أننا لو شئنا الإشادة بشكل من أشكال الحكم على أنه القدوة لجيلنا لكان هو الحكم الإنجليزى . فالبرلمان هناك هو القاضى الأعلى للشعب والملك على السواء ، وللملك كامل القدرة على فعل الخير ، ولا قدرة على فعل الشر (٥٦) .

ولسنا نجد فى هذه الآراء أى علامة من علامات عدم الإخلاص ، فهى تتكرر المرة بعد المرة فى رسائل فردريك التى تنتمى لهذه الفترة . وقد بعث بمخطوطة كتابه إلى فولتير (يناير سنة ١٧٤٠) ، الذى طلب الإذن له بأن ينشرها . ووافق المؤلف الفخور على استحياء ، وكتب فولتير مقدمة للكتاب ، وأخذ المخطوطة إلى لاهاى ، وأشرف على طبعها ، وصحح تجاربها . وفى أواخر سبتمبر طلع الكتاب على الناس فجأة غفلا من اسم المؤلف بعنوان « المعارض لمكيافللى » . وسرعان ما كشف سر مؤلفه ، وشارك القراء فولتير فى الترحيب بمقدم ملك — فيلسوف .

أما فردريك وليم الأول فقد ظل إلى النهاية تقريباً على ما كان عليه طويلا ، كأنه سنديانة كثيرة العقد ، يوبخ ، ويندد ، ويشرع القانون بطريقته العجيبة . ولم يسالم العالم على مضض إلا حين أنبأه واعظ البلاط بدنو أجله ، وبأنه يجب أن يغفر لأعدائه إن أراد أن يغفر الله له . وأرسل فى لحظاته الأخيرة فى طلب فردريك ، وعانقه وبكى ، فلعل هذا الفتى العنيد ، رغم هذا كله ، أن يحوى بين جنبيه مقومات ملك ؟ وسأل القواد المحيطين بسريره « ألست محظوظاً لأن لى ولداً أستخلفه » ؟ (٥٧) ولعل

الابن فهم الآن أكثر من ذى قبل إحساس أبيه الشيخ بأن الملك يجب أن يكون له بعض الحديد فى دمه .

وفى ٣١ مايو ١٧٤٠ أسلم فردريك وليم الأول روحه وعرشه وقد أبلاه النضال ولما يجاوز الحادية والخمسين ، وآل الملك لمعارض مكيافللى .

٣ — مكيافللى الجديد

كان فردريك الثانى فى الثامنة عشرة من عمره حين ولى العرش . وكان لا يزال — كما رسمه أنطوان بين قبل ذلك بعام — الموسيقى والفليسوف رغم دروعه البراقة : قسمات حلوة رقيقة ، وعينان واسعتان تختلط فيهما الزرقة بالشهبة ، وجبين عال ؛ « له أسلوب فى السلوك طبيعى جذاب ، وصوت خافت سار . » [٥٨] على حد قول السفير الفرنسى . وكان إلى ذلك الحق تلميذ فولتير ، وقد كتب له بعد ستة أيام من تقلده الحكم :

لقد تبدل حظى ، وشهدت اللحظات الأخيرة لملك ، ومعاناته ، وموته . لم يكن بى حاجة وأنا أرتقى العرش إلى ذلك الدرس لكى أشمئز من خيلاء العظمة البشرية .... وأرجو ألا ترى فى إلا مواطناً غيوراً ، وفيلسوفاً تغلب عليه نزعة الشك ، وصديقاً صدوقاً . وإنى أستحلفك بالله أن تكتب لى كتابتك لإنسان عادى ، وأن تحتقر مثلى الألقاب والأسماء وكل مظاهر الزهو والغرور [٥٩] .

وعاد يكتب إلى فولتير بعد ثلاثة أسابيع :

« إن ضخامة العمل الذى ألقاه القدر على عاتقى لا يكاد يترك وقتاً لحزنى الحقيقى . وإننى أشعر أننى بعد فقدى أبى مدين بجملتى لبلدى . ولهذا الهدف أعمل بكل طاقتى لاتخاذ أسرع التدابير وأصلحها للخير العام » . [٦٠]

وقد صدق . ففى غداة توليه العرش ، حين حكم من برد الربيع بأن المحصول سيكون متأخراً وهزيلا ، أمر بأن تفتح مخازن الغلال العامة ، وأن يباع القمح للفقراء بأسعار معقولة . وفى اليوم الثالث ألغى فى جميع أرجاء بروسيا اللجوء إلى التعذيب فى محاكمة المجرمين — قبل أن يصدر باكاريا

رسالته الخطرة بأربعة وعشرين عاماً ، وينبغى أن نضيف أن التعذيب فى المحاكمات وإن أجازه القانون إلا أنه من الناحية العملية تقادم فى عهد فردريك وليم الأول ، وأن فردريك انتكس لحظة إلى استعماله فى حالة واحدة عام ١٧٥٢ . (٦١) وفى ١٧٥٧ وكل إلى صموئيل فون كوكيبي ، كبير القضاة البروسيين ، أن يشرف على إصلاح القانون البروسى اصلاحاً شاملا .

وظهر تأثير الفلسفة فى أعمال أخرى قام بها فى هذا الشهر الأول . ففى ٢٢ يونيو أصدر فردريك أمراً بسيطاً جاء فيه « يجب التسامح مع جميع الأديان ، وعلى الحكومة أن تتحقق من أن أحداً منها لا يجور على غيره ، لأن على كل إنسان فى هذا الوطن أن يصل إلى السماء بطريقته الخاصة » . (٦٢) ولم يصدر أمراً رسمياً عن حرية المطبوعات ، ولكنه أباحها عملياً ، فقال لوزرائه « إن الطباعة حرة » واحتمل فى صمت ملؤه الاحتقار مئات الانتقادات العنيفة التى نشرت ضده (٦٣) . ومرة رأى هجوماً ساخراً معلقاً فى أحد الشوارع ، فأمر بأن ينقل إلى مكان يسهل قراءته فيه . وقال « لقد انتهيت أنا وشعبى إلى اتفاق يرضينا جميعاً : يقولون ما يشتهون ، وأفعل ما أشتهى » . (٦٤) ولكن هذه الحرية لم تكن كاملة قط ؛ فكلما ارتقى فردريك الأكبر فى مدارج العظمة حظر النقد العلنى لتدابيره الحربية أومراسيمه الضرائبية . وظل ملكاً مطلق السلطة وإن حاول أن يجعل تدابيره متسقة مع القوانين .

ولم يبذل أى محاولة لتغيير هيكل المجتمع أو الحكومة البروسيين . فظلت المجالس والهيئات الإدارية كما كانت ، إلا أن فردريك شدد الرقابة عليها وشارك بهمة أكبر فى أعمالها ؛ وقد أصبح عضواً فى جهازه البيروقراطى. قال السفير الفرنسى « إنه يبدأ حكمه بطريقة مرضية جداً : فحيثما تلفت وجدت آثار بره برعيته وعطفه عليها » . (٦٥) ولكن هذا لم يمتد إلى التخفف من وطأة القنية ؛ فظل الفلاح البروسى أسوأ حالا من الفرنسى ، واحتفظ النبلاء بامتيازاتهم .

وتضافر تأثير فولتير مع تقليد ليبنتس فى إحياء أكاديمية برلين للعلوم إحياء قوياً . فبعد أن أسسها فردريك الأول (١٧٠١) أهملها فردريك وليم الأول . أما فردريك الثانى فقد جعلها الآن أبرز الأكاديميات فى أوربا . وقد سلف القول بأنه رد فولف من منفاه . وأراد فولف أن يرأس الأكاديمية ولكنه كان طاعناً فى السن ، ضعيف الساقين ، فيه شىء من الخضوع للعقائد التقليدية . أما فردريك فأراد رئيساً لها من أصحاب « العقول القوية » (أحرار الفكر) ، رجلا مواكباً لآخر تطورات العلم ، لا يعوقه معوق من اللاهوت . وعملا باقتراح من فولتير (أسف عليه فيما بعد) دعا (يونيو ١٧٤٠) بيير لوى مورو دموبير توى ، الذى كان الآن فى منتصف عمره ، عائداً لتوه من بعثة شهيرة إلى لايلاند لقياس درجة من درجات العرض . وحضر موبيرتوى وأغدق عله فردريك العون والتأييد ، فبنى مختبراً عظيما وأجرى تجارب أحياناً فى حضرة الملك والحاشية . وقد ذهب جولدسمث ، الذى لابد قد خبر جمعية لندن الملكية ، إلى أن أكاديمية علوم برلين « تفوق أى أكاديمية غيرها فى الوجود » (٦٦) .

وأبهج هذا كله فولتير . فلما أتيحت لفردريك فرصة زيارة كليفز دعا الفيلسوف للقائه . وكان فولتير يومها فى بروكسل ، فانتزع نفسه من مركزته الفكدة ، وسافر ١٥٠ ميلا إلى « شلوس مويلاند » . هناك رأى أفلاطون الجديد ديونيسيوسه أول مرة ، وأنفق ثلاثة أيام (١١ — ١٤ سبتمبر ١٧٤٠) فى نشوة غامرة لم يفسدها غير وجود ألجاروتى دموبيرتوى . وفى خطاب للسيدة سيدفيل كتبه فى ١٨ أكتوبر أبدى رأيه فى فردريك فقال :

فى ذلك المكان رأيت رجلا من ألطف الرجال فى الدنيا ، هو زينة المجتمع ، ولو لم يكن ملكاً لسعى إليه الناس فى كل بلد ، فيلسوف مبرأ من التزمت ، كله حلاوة ، وكياسة ، وسلوك كريم ؛ ينسى أنه ملك حين يلقى أصدقاءه . لقد احتجت إلى جهد من ذاكرتى لأتذكر أن الجالس عند أسفل سريرى ملك له جيش عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل . (٦٧)

ولم يكن فردريك أقل اغتياطاً . فقد كتب إلى مساعده جوردان فى ٢٤ سبتمبر يقول :

رأيت فولتير الذى كنت تواقاً إلى معرفته ، ولكنى رأيته وحمى الربع تهدنى ، وعقلى وجسدى متوتر الأعصاب ... إن له فصاحة شيشرون ، ولطف بيانى ، وحكمة أجريبا ، فهو باختصار يجمع خير ما يجنى من الفضائل والمواهب من ثلاثة من أعظم القدماء ، وعقله لاينى عن التفكير ، وكل قطرة مداد هى رحيق ذكاء يقطر من قلمه ... إن لاشاتليه محظوظة بعيشه معها ، فإن فى وسع إنسان لم يؤت من المواهب غير ذاكرة قوية أن يؤلف كتاباً رائعاً من الأقوال الحكيمة التى ينثرها كيفما اتفق . » (٦٨)

فلما رجع فردريك إلى برلين لاحظ أن لديه جيشاً عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وفى ٢٠ أكتوبر مات شارل السادس وارتقت عرش إمبراطورية النمسا والمجر شابة لها جيش من الدرجة الثانية . فى ذلك اليوم ذاته أرسل فردريك إلى فولتير خطاباً نذيراً بالشر ، جاء فيه « أن موت الامبراطور يغير كل أفكارى السلمية ، وأظن أن الأمور ستنحو فى شهر يونيو نحو المدافع والبارود ، والجنود والخنادق ، بدلا من الممثلات والمراقص والمسارح ؛ بحيث أرانى مضطراً إلى إلغاء الاتفاق الذى كنا على وشك إبرامه . (٦٩)

وأحس فولتير فى قلبه وجعاً . أترى تلميذه هذا تاجر حرب كأى ملك آخر ؟ وانتهز دعوة فردريك إياه لزيارته فى برلين فقرر أن يرى ما هو مستطيع صنعه فى سبيل السلام وقد يستطيع فى الوقت ذاته أن يصلح ما فسد بينه وبين فرساى لأن الكردينال فلورى ، الذى ظل قابضاً على دفة الحكم فى فرنسا كان هو أيضاً ينشد السلام . وعليه ففى ٢ نوفمبر كتب إلى الكردينال يعرض خدماته عميلا سرياً لفرنسا ، فى محاولة لرد فردريك إلى حظيرة الفلسفة . وقبل فلورى العرض ، ولكنه وبخ الدبلوماسى الجديد برفق على حملاته العنيفة على الدين « لقد كنت حدثاً ، وربما طالت حداثتك بعض الشىء » . (٧٠) وفى خطاب آخر بنفس التاريخ (١٤ نوفمبر) كتب الكردينال اللطيف ينبىء بتسلمه كتاب « المعارض لمكيافيلى من مدام دشاتليه وأطراه وهو يحدس بحكمة هوية مؤلفه :

أياً كان مؤلف هذا الكتاب ، فهو جدير بأن يكون أميراً إن لم يكنه . والقليل الذى قرأته منه يفيض حكمة ومعقولية وفيه تعبير عن مبادىء جديرة

بالإعجاب الشديد ، مما يؤهل مؤلفه لقيادة غيره من الناس ، شريطة أن يؤتى من الشجاعة ما يجعله يطبق مبادئه . فإذا كان قد ولد أميراً فقد دخل فى ميثاق جليل جداً مع الشعب ؛ وما كان الامبراطور أنطونينوس مكتسباً المجد الخالد الذى يحتفظ به جيلا بعد جيل لو لم يدعم بعد الة حكمه تلك الفضيلة السامية التى بسطها لجميع الملوك فى مثل هذه الدروس المنيرة ... وسوف أتأثر تأثراً لاحد له إذا استطاع صاحب الجلالة البروسى أن يجد فى مسلكى بعض التطابق مع مبادئه ، ولكنى أؤكد لك على الأقل أننى أعتبر مخططه مخططاً لأكمل وأمجد حكومة . (٧١) .

وبعد أن رتب فولتير أداء فردريك لجميع نفقات رحلته عبر ألمانيا لأول مرة ، وأنفق زهاء أسبوعين مع الملك فى راينزبرج وبوتسدام وبرلين (٢٠ نوفمبر إلى ٢ ديسمبر) وارتكب خطأ بإطلاعه فردريك على خطاب الكردينال عن كتابه « المعارض لمكيافللى » وتبين فردريك فوراً أن فولتير يلعب دور الدبلوماسى ، ففسر مديح فلورى الجميل على أنه دعوة للتعاون مع فرنسا ؛ وضايقه أن يرى نفسه معوقاً بمقال كتبه فى الفلسفة . وتبادل الشعر والأجوبة البارعة مع فولتير ، ورفه عنه بعزفه على الفلوت ، وصرفه دون شىء محدد أكثر من شكره على الكينين الذى لطف به الشاعر برداء الملك ، وفى ٢٨ نوفمبر كتب فردريك إلى جوردان وهو يعنى فولتير دون أن يذكر اسمه صراحة » . إن صاحبك البخيل سيعب ما شاء ليروى ظمأه الذى لا يطفأ للغنى ، فسيقبض ثلاثة آلاف طالر ، وهو ثمن غال يدفع لمهرج ؛ فما من مهرج بلاط نقد مثل هذا الأجر من قبل » . (٧٢) ويبدو أن هذا المبلغ شمل نفقات رحلة فولتير — التى تطوع فردريك على الأرجح بدفعها — وتكاليف نشر كتابه « المعارض لمكيافللى » التى كان فولتير قد قدمها من جيبه الخاص . وهكذا إذا دخل المال من الباب خرج الحب من الشباك ، كما يقولون ، إن فردريك لم يستطب دفع نفقات عميل فرنسى ولا تكاليف كتاب كان يسره أن يرشو العالم ليناه .

وغلب تأثير فردريك وليم الآن تعاليم الفيلسوف . وكلما حلت فرص

السلطة وتبعات الحكم محل موسيقى صباه وشعره وهو بعد أمير ، ازداد فردريك برودا وقسوة ، لا بل إن المعاملة السيئة التى كان أبوه يصبها عليه أغلظت جلده ومزاجه . وكان فى كل يوم يرى أولئك العمالقة الـ ١٠٠,٠٠٠ الذين خلفهم له أبوه ، وفى كل يوم كان عليه أن يطعمهم . فأى معنى لتركهم يصدأون ويبلون فى السلم ؟ أما من ظلم يستطيع هؤلاء العمالقة رفعه ؛ أجل ، هناك سيليزيا ، التى تفصلها بوهيميا عن النمسا ، والأقرب إلى برلين منها إلى فيينا ؛ وكان نهر الأودر العظيم يجرى هابطاً من بروسيا إلى برزلا وعاصمة سيليزيا التى لا تبعد عن برلين غير ١٨٣ ميلا إلى الجنوب الشرق . فماذا يفعل النمساويون هناك ؟ إن لبيت برندبنورج مطالب فى سليزيا — فى الإمارات السابقة — وهى بيجرندورف ، وراتيبور ، وأوبيلن ، وليجنتس ، وبريج ، وفولاو ؛ هذه كلها أخذتها النمسا أو تم التنازل لها عنها بمقتضى ترتيبات لم تكن قط مرضية لبروسيا . إذن فالآن ، والوراثة النمساوية محل نزاع ، وماريا تريزا صغيرة ضعيفة ، وعلى العرش الروسى قيصر طفل هو إيفان السادس — الآن هو الوقت الملائم للإلحاح على تلك المطالب القديمة ، ولتصحيح تلك الأخطاء القديمة — ولإعطاء بروسيا وحدة وأساساً جغرافياً أعظم من ذى قبل .

وفى أول نوفمبر قال فردريك ليوديفيلز أحد مستشاريه : « حل لى هذه المسألة : إذا أتيحت لإنسان ميزة فهل ينتفع بها أو لا ينتفع ؟ إننى مستعد بجيشى وبكل شىء آخر . فإذا لم أستعمله الآن كنت أملك فى يدى أداة عديمة الجدوى رغم قوتها . وإذا استعملت جيشى قيل إننى أوتيت مهارة استغلال التفوق المتاح لى على جارتى . » ورأى بوديفيلز أن هذا العمل سيعتبر عملا غير أخلاقى . فرد فردريك : ومتى كانت الفضيلة معوقاً للملوك ؟ (٧٣) وهل فى وسعه أن يمارس الوصايا العشر فى عرين الذئاب ذاك الذى يسمى الدول العظمى ؟ ولكن ألم يتعهد فردريك وليم بتأييد « الأمر العالى » الذى ضمن لماريا تريزا تلك الممتلكات التى خلفها لها أبوها ؟ إن هذا التعهد على أية حال كان مشروطاً بتأييد الامبراطور لمطالب بروسيا فى يوليش وبيرج ، وهذا التأييد لم يأت ، بل على العكس بذل لمنافسى بروسيا . فالآن يمكن الثأر لهذه الإهانة المؤلمة .

وعليه فنى ديسمبر أرسل فردريك مبعوثاً إلى ماريا تريزا يعرض عليها حمايته إذا أقرت مطالبه فى شطر من سيليزيا . وإذ توقع رفضها لهذا الغرض ، فإنه أمر شطراً من جيشه يبلغ ثلاثين ألف مقاتل بالزحف . فعبر الحدود إلى سيليزيا فى ٢٣ ديسمبر قبل وصول مبعوث فردريك إلى فيينا بيومين . وهكذا بدأت الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ — ٤٢) ، وهى أولى مراحل حرب الوراثة النمساوية .

٤ — حرب الوراثة النمساوية ؛ : ١٧٤٠ — ٤٨

لن نتتبع فردريك فى كل تحركاته العسكرية ، لأن هذا الكتاب تاريخ للحضارة . ولكن يهمنا طبيعة الإنسان وسياسة الدول كما تكشف عنهما أقوال فردريك وأفعاله ، والسياسات المتقلبة للدول . ولعل حقائق سياسة القوة لم تقر فى أى حرب مدونة بأوضح مما تعرت فى هذه الحرب .

اخترق الجيش البروسى سيليزيا دون أن يلقى مقاومة تذكر . فأما النصف البروتستنتى من السكان ، وهم الذين عانوا بعض الاضطهاد فى ظل الحكم النمساوى ، فقد رحبوا بفردريك محرراً لهم ؛ [٧٤] وأما الكاثوليك فقد تعهد لهم — وأوفى بعهده — بكامل الحرية فى ممارسة دينهم . وفى ٣ يناير ١٧٤١ استولى على برزلاو فى هدوء . وهو يؤكد لنا أنه « لم ينهب بيت ، ولم يهن مواطن ، وقد أشرق النظام البروسى بكل بهائه » ؛ [٧٥] وكان هذا أرق وأرفق استيلاء على مدينة . وأمرت ماريا تريزا المرشال نايبيرج بأن يجمع جيشاً فى مورافيا ويعبر به إلى سيليزيا ؛ وفى ١٠ أبريل اشتبك هذا الجيش بقوة فردريك السيليزية الرئيسية فى مولفتش ، على عشرين ميلا جنوبى برزلاو . وكانت عدة جيش نايبيرج ٨,٦٠٠ فارس ، و ١١,٤٠٠ راجل ، و ١٨ مدفعاً ، وعدة فردريك ٤,٠٠٠ فارس و ١٦,٠٠٠ راجل ، وستين مدفعاً ، وقد قررت هذه الفروق مراحل المعركة ونتائجها . فغلب الفرسان النمساويون الفرسان البروسيين الذين لاذوا بالفرار . وأقنع المرشال شفرين فردريك بأن يفر مع الفارين مخافة أن يؤسر ولا يفرج عنه إلا بفدية مدمرة . ولكن بعد أن ذهب الملك وفرسانه ، صمد المشاة البروسيون لجميع الهجمات

سواء من الفرسان أو المشاة ، أما المدفعية البروسية فقد أعادت تعبئة مدافعها بمدكات حديدية وألحقت من الأذى البالغ بالنمساويين ما حمل نايبيرج على إصدار أمره بالتقهقر . فلما استدعى فردريك ثانية إلى ساحة القتال أبهجه وأخجله أن يجد أن جيشه كسب المعركة . وأحس أنه أذنب لا بالجبن فحسب بل بالاستراتيجية الناقصة ؛ فلقد بعثر رجاله الثلاثين ألفاً فى سيليزيا قبل أن يدعم غزوه ، ولم ينقذ الموقف غير شجاعة مشاته وحسن تدريبهم . وجاء فى مذكراته أنه « فكر كثيراً فى الأخطاء التى ارتكبها ، وحاول إصلاحها فيما تلا ذلك . » [٧٦] ولم يكن فى بسالته قصور مرة أخرى بعد هذا ، وندر أن أخطأ فى التكتيك أو الاستراتيجية .

ونمى نبأ هزيمة الجيش النمساوى إلى ماريا تريزا وهى تستجم عقب ولادة طفلها . وبدا أن أملها الوحيد — فى حالة الضعف الذى أصاب قواتها وماليتها — معقود على معونة من الخارج . فلجأت إلى الدول الكثيرة التى تعهدت من قبل بتأييدها للأمر العالى الخاص بحكمها . واستجابت انجلتره فى حذر ؛ فهى فى حاجة إلى نمسا قوية تثبت لفرنسا ، ولكن جورج الثانى خاف على إمارته الهانوفرية إن خاض الحرب ضد جارته بروسيا . وأقر البرلمان البريطانى إعانة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لماريا تريزا ، ولكن المبعوثين البريطانيين حثوها على أن تتنزل عن سيليريا السفلى (الشمالية) لفردريك ثمناً للسلام . وكان فردريك راضياً بهذا الحل ، ولكن الملكة رفضته . أما بولنده ، وسافوى ، والجمهورية الهولندية ، فقد وعدت كلها بالمعونة ، ولكنها أبطأت فى إرسالها إبطاء أفقدها أثرها فى النتيجة .

وكل ائتلاف يلد نقيضاً له . فما إن رأت فرنسا ذلك التقارب بين عدويها القديمين انجلتره والنمسا حتى بادرت بالتحالف مع بافاريا ، وبرويسا ، وأسبانيا البوربونية . وقد رأينا أن فرنسا كان لديها مكيافللها ، وهو بيل — إيل ، الذى اقترح هذه الآية من آيات اللصوصية السياسية . فعلى فرنسا التى تعهدت بتأييد الأمر العالى أن تسرع بالإفادة من مصيبة ماريا تريزا ، وذلك بتأييد شارل ألبرت البافارى فى مطالبته بالعرش الإمبراطورى عن طريق زوجته . وعلى فرنسا أن تقدم له المال والجند للمشاركة فى الهجوم على النمسا ،

فإذا أفلحت الخطة قصر حكم ماريا تريزا على المجر ، والنمسا السفلى ، والأراضى المنخفضة النمساوية ، وأصبح شارل إمبراطوراً يحكم بافاريا ، والنمسا العليا ، والتيرول ، وبوهيميا ، وجزءاً من سوابيا ؛ أما الابن الثانى لملك اسبانيا فيأخذ ميلان ، وعارض فلورى الخطة ، وتغلب بيل — ايل ، وأرسل ليظفر بتأييد فردريك للمؤامرة . ووقعت فرنسا وبافاريا على تحالفهما فى نمفنبورج فى ١٨ مايو ١٧٤١ . وأحجم فردريك عن الانضمام فلم يكن فى وسعه أن يسمح لفرنسا بأن تقوى شوكتها إلى هذا الحد ، ولم يفقد الأمل فى الوصول إلى تفاهم مع ماريا تريزا ، ولكن لما لم تعرض عليه سوى تنازلات تافهة ، فقد وقع ببرزلاو فى ٥ يونيو حلفاً مع فرنسا ، وبافاريا ، وأسبانيا ؛ وأراد أن يشارك فى الغنيمة بنصيب إن قسمت المملكات النمساوية . وتعهد كل طرف من الأطراف الموقعة على الحلف بألا تعقد حكومته صلحاً منفرداً سرياً . وضمنت فرنسا استلاء فردريك على برزلاو وسيليزيا السفلى ، ووعدت بأن تحث السويد على تعليق روسيا فى حرب تشغلها ، ووافقت على إرسال جيش فرنسى لمنع قوات انجلتره الهانوفرية من المشاركة فى اللعبة .

أما وقد تركت ماريا تريزا بغير حليف تقريباً ، فإنها صممت على الاستنجاد بنبلاء المجر العسكريين . وكان هؤلاء النبلاء ، أو أسلافهم ، قد عانوا الأمرين من حكم النمسا ؛ فقد حرمهم ليوبولد الأول دستورهم القديم وحقوقهم الموروثة ، فلم يكن لديهم إذن كبير مبرر لإغاثة حفيدته . ولكن حين ظهرت أمامهم فى مجلسهم النيابى (الديت) فى برسبورج (١١ سبتمبر ١٧٤١) أثر فيهم جمالها ودموعها . وخطبت فيهم باللاتينية ، واعترفت بأن حلفاءها تخلوا عنها ، وأعلنت أن شرفها وعرشها يعتمدان الآن على بسالة وشهامة الفرسان المجريين والأسلحة المجرية وما يروى من أن النبلاء هتفوا باللاتينية « لنمت فداء مليكنا » (فهكذا سموا الملكة) إنما هو قصة جميلة هبطت الآن إلى مرتبة الأسطورة . (٧٨) فقد ساوموا كثيراً ، واستلوا منها العديد من التنازلات السياسية ؛ ولكن حين جاءهم زوجها فرانسيس ستيفن فى ٢١ سبتمبر ومعه مرضع ترفع لهم بين يديها الطفل جوزف ذا الشهور الستة ، استجابوا للنداء بشهامة ، وهتف كثيرون منهم

بأن حياتهم ودماءهم فداء للملكة [٧٦] وأقر المجلس التجنيد العفوى العام . ودعوة جميع الرجال للسلاح ، وبعد تعطيل طويل ركبت قوة مجرية صوب الغرب للدفاع عن الملكة .

ولو أن شارل ألبرت واصل زحفه على فيينا لكان الوقت قد فات لتخليص هذه العاصمة . ولكن الذى حدث أثناء ذلك (١٩ سبتمبر) أن سكسونيا انضمت إلى الحلف المعادى للنمسا ؛ فخشى شارل البرت أن يستولى أوغسطس الثالث على بوهيميا ، ونصح فلورى الأمير البافارى بأن يستولى على بوهيميا قبل أن يستطيع السكوسونى الوصول إليها . وحث فردريك شارل على مواصلة الزحف على فيينا . أما شارل الذى كانت فرنسا تموله فقد أطاع فرنسا . وخشى فردريك أن تصبح فرنسا بعد غلبة نفوذها فى بافاريا ويوهيميا قوة خطرة على أمن بروسيا ، فوقع هدنة سرية مع النمسا (٩ أكتوبر ١٧٤١) وزلت له ماريا تريزا مؤقتاً عن سيليزيا السفلى لحرصها على إنقاذ بوهيميا .

وأحدقت ثلاثة جيوش الآن ببراغ : أحدها بقيادة شارل ألبرت ، والثانى جيش فرنسى بقيادة بيل — ايل . ثم عشرون ألف سكسونى . وسقطت العاصمة البوهيمية ذات الحامية الضعيفة بعد الهجمة الأولى (٢٥ نوفمبر) ولكن النصر كان كارثة على شارل . ذلك أنه وقد استغرقته الحملة على بوهيميا ترك إمارته البافارية دون أن يدعمها بأسباب دفاع تذكر ، ولم يدر بخلده قط أن تستطيع ماريا تريزا الهجوم عليها وهى مهددة بأخطار من هذه الجوانب الكثيرة . ولكن الملكة أبدت من مرونة الحركة وسهولة التكيف ما أوقع الفزع فى قلوب أعدائها . فقد استدعت عشرة آلاف جندى نمساوى من إيطاليا ، وأخذت الفرق المجرية تصل إلى فيينا . فأمرت على هذين الجيشين الكونت لودفج فون كيفنهولر . الذى تعلم فنون الحرب على يد أوجين أمير سافوى . أما وقد توفرت للجيشين القيادة القادرة ، فقد فتحا بافاريا واجتاحاها دون مقاومة تذكر ؛ وفى ١٢ فبراير ١٧٤٢ استوليا على ميونخ عاصمتها . وفى هذا اليوم نفسه فى فرانكفورت — أم — مين ،

توج شارل ألبرت امبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل السابع .

أما فردريك ، الذى كان يتحول مع كل ريح من رياح القوة ، فقد دخل الحرب من جديد خلال ذلك . لقد جعل الهدنة مشروطة بكتمان أمرها ، ولكن ماريا تريزا كشفت أمرها لفرنسا . ووصلت إلى آذان فردريك هذه الهمسات الدبلوماسية ، فبادر بالانضمام إلى حلفائه من جديد (ديسمبر ١٧٤١) . واتفق معهم على خطة يقود بمقتضاها جيشاً يخترق مورافيا إلى النمسا السفلى ، وهناك تلتقى به القوات السكسونية والفرنسية البافارية ، ويزحف الجميع معاً إلى فيينا . ولكنه كان يقود الآن عملياته وسط سكان معادين له عداء نشيطاً ، وكان الفرنسان المجريون يغيرون على خطوط مواصلاته مع سيليزيا . فارتد ثانية ودخل بوهيميا . هناك ، على مقربة من شوتوستز ، هجم على مؤخرته جيش نمساوى بقيادة الأمير اللورينى شارل الكسندر (١٧ مايو ١٧٤٢) . وكان هذا الأمير ، زوج أخت ماريا تريزا ، شاباً فى الثلاثين وواحداً من ألمع وأشجع أمراء أسرته ، ولكنه لم يكن قريباً لفردريك فى تكتيكات المعركة . وكان لكل منهما جيش عدته نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل . وعادت طلائع فردريك إلى ساحة القتال فى الوقت المناسب تماماً ، فوجه قوتها الكاملة ضد جناح مكشوف للنمساويين ، فتراجعوا فى تقهقر منتظم . ولحقت بالجيش خسائر فادحة ، ولكن النتيجة أقنعت ماريا تريزا بأنه ليس فى استطاعتها أن تقاتل كل أعدائها فى وقت واحد . فقبلت نصيحة المبعوثين الإنجليز الذين أشاروا عليها بإبرام صلح واضح محدد مع فردريك ، وفى هذه المرة ، وبمقتضى معاهدة برلين (٢٨ يوليو ١٧٤٢) نزلت له عن سليزيا كلها تقريباً . وهكذا وضعت الحرب السيليزية الأولى أوزارها .

أما الجيشان النمساويان اللذان يقودهما كيفنهولر والأمير شارل الكسندر فقد زحفا الآن داخل بوهيميا . وواجهت الحامية الفرنسية فى براغ التطويق والتجويع . ورغبة فى تحاشى « قياس الخلف » هذا لأحلام بيل - إيل ، أمرت فرنسا المرشال مايبوا بأن يقود إلى بوهيميا ذلك الجيش الذى كان يشاغل

قوات جورج الثانى فى هانوفر . وإذ تحررت انجلتره على هذا النحو ، فإنها دخلت الحرب بنشاط ، وأقرضت ماريا تريزا ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأرسلت ستة عشر ألف جندى إلى فلاندر النمساوية ؛ ودفعت الأقاليم المتحدة ٨٤٠,٠٠٠ فلورين مساهمة منها فى نفقات الحرب . وأحالت الملكة المال جيوشاً . وسد أحد هذه الجيوش طريق مايبوا فى زحفه على بوهيميا . وتجمعت القوات النمساوية ، التى ازداد عددها ، غير مرة حول براغ . وفر بيل — إيل ومعظم جنوده إلى يجير بعد أن كلفهم هذا ثمناً عالياً . وأقبلت ماريا تريزا من فيينا إلى براغ ، وهناك توجت أخيراً (١٢ مايو ١٧٤٣) ملكة على بوهيميا .

وبدت الآن منتصرة فى كل مكان . وفى شهر مايو هذا وافقت الأقاليم المتحدة على أن تعينها بعشرين ألف مقاتل . وبعد شهر هزم حلفاؤها الإنجليز أعداءها الفرنسيين فى ديتنجن . وكان لسيطرة البحرية الإنجليزية على البحر المتوسط أثر فى دعم قضيتها فى إيطاليا . ففى ١٣ سبتمبر انضم ملك سردانيا شارل إيمانويل الأول إلى حلف من النمسا وانجلتره . ونال شريحة من لمبارديه من النمسا وتعهداً من انجلتره بأن تدفع له ٢٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام نظير ٤٥,٠٠٠ جندى ؛ وهكذا اشترى الجند بالجملة ، والملوك بالتجزئة . وداعبت الآن ماريا تريزا الأحلام . لا باسترداد سيليزيا فحسب ، بل بضم يافاريا ، والإلزاس ، واللورين . إلى امبراطوريتها ، إذ كانت عنيدة وقت الانتصار بقدر ما كانت باسلة وقت الشدة .

أما فردريك فقد داعب السلام برهة . ففتح دار أوبرا جديدة فى برلين ، وقرض الشعر ، وعبثت أنامله بالفلوت . وجدد دعوته لفولتير ، ورد فولتير بأنه ما زال وفياً لاميلى . ولكن حدث عند هذا المنعطف أن الوزارة الفرنسية — التى راعها أن تجد فرنسا فى حرب مع انجلتره ، والنمسا ، والجمهورية الهولندية ، وسافوى — سردانية — تذكرت أن عبقرية فردريك وعمالقته سيكون عوناً مرحباً به ؛ وأن انتهاكاته لمعاهداته التى أبرمها مع فرنسا يمكن اغتفارها إذا انتهك معاهدته مع النمسا ؛ وأنه قد يمكن إقناعه بأن يرى فى سطوة النمسا المنبعثة من جديد خطراً يتهدد سلطانه على سيليزيا

بل على برويسيا . فمن يستطيع أن يوضح له هذا على أحسن وجه ؟ لم لا يجرب فولتير ، الذى بيده الآن دعوة من فردريك ، والذى يتوق دائماً لأن يلعب دوراً فى السياسة ؟

وهكذا عاد فولتير داعية السلام يخترق ألمانيا فى مركبة يثب داخلها ويتأرجح ، وأنفق هناك ستة أسابيع (من ٣٠ أغسطس إلى ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) وهو يحاول إقناع فردريك بخوض الحرب . ولم يستطع الملك أن يلتزم بوعد ، فصرف الفيلسوف خاوى الوفاض إلا من التحيات . ولكن تقدم حملات عام ١٧٤٤ أدخل فى قلبه الخوف على سلامته وعلى دوام مكاسبه . ففى ١٥ أغسطس بدأ الحرب السيليزية الثانية .

وأراد أن يفتح بوهيميا . ولما كانت سكسونيا تقع بين برلين وبراغ ، فقد سير جنوده مخترقاً درسدن ، فأسخط بذلك أوغسطس الثالث الغائب عن وطنه . وما وافى الثانى من سبتمبر حتى كان رجاله الثمانون ألفاً يدقون أبواب براغ ، وفى ١٦ سبتمبر استسلمت الحامية النمساوية . وبعد أن ترك فردريك خمسة آلاف جندى لاحتلال العاصمة البوهيمية ، زحف جنوباً وهدد فيينا من جديد . وردت ماريا تريزا بتحدى هذا الخطر ، فركبت على عجل إلى برسبورج وطلبت من الديت المجرى تجريدة أخرى من الجند ، فجمع لها ٤٤,٠٠٠ ، وبعد قليل زادهم ٣٠,٠٠٠ آخرين . وأمرت الأمير شارل بالكف عن مهاجمة الألزاس وقيادة الجيش النمساوى الرئيسى شرقاً لاعتراض زحف البروسيين . وتوقع فردريك أن الفرنسيين سيطاردون النمساويين ، ولكنهم لم يفعلوا . فحاول أن يكره شارل على القتال ، غير أن الأمير تجنبه ، ولكنه دعم جهود المغيرين لقطع خطوط اتصال البروسيين بسيليزيا وبرلين . وأعاد التاريخ نفسه ؛ فقد وجد فردريك جيشه معزولا وسط سكان من الكاثوليك المتحمسين لمذهبهم المعادين له عداء فيه دهاء وبراعة . وكانت الجنود المجرية فى طريقها للانضمام إلى الأمير شارل . ونمى إلى فردريك أن سكسونيا دخلت الحرب صراحة فى صف النمسا . وخاف فرديك أن يعزل عن عاصمته وعن مصادر تموينه ، وأمر الحامية البروسية بالتخلى عن براغ ؛ وفى ١٣ ديسمبر قفل راجعاً إلى برلين ، دون زهوه الماضى ، بعد أن تعلم أن الخادع قد يخدع .

وجرى تيار الحرب أشد ما يكون معاكسة له . ففى ٨ يناير ١٧٤٥ وقعت انجلتره ، والأقاليم المتحدة ، وبولنده — سكسونيا ، فى وارسو ميثاقاً مع النمسا وعد جميع موقعيه بأن يرد لكل منهم كل ما كان يملكه فى ١٧٣٩ — ومعنى هذا أن تعاد سيليزيا لماريا تريزا . ووعد أوغسطس الثالث بأن يقدم ٣٠,٠٠٠ مقاتل نظير ١٥٠,٠٠٠ جنيه من انجلتره وهولندة ؛ بواقع خمسة جنيهات لكل نفس . وفى ٢٠ يناير مات شارل السابع بعد أن تقلد عرش الامبراطورية برهة قصيرة جداً ، وكان يبلغ الثامنة والأربعين ، وقد أعرب حين حضره المنية عن أسفه لما ألحقه بوطنه من خراب من جراء تطلعه لعرشى الامبراطورية وبوهيميا ، وطلب إلى ولده مكسمليان جوزف أن يقلع عن هذه الدعاوى ويسالم البيت المالك النمساوى ، وامتثل الناخب الجديد للنصيحة رغم اعتراضات فرنسا ؛ ففى ٢٢ ابريل تخلى عن كل دعاوى فى عرش الامبراطورية ، ووافق على تأييد الدوق فرنسس ستيفن فى مطالبته بالتاج الامبراطورى . وسحبت الجنود النمساوية من بافاريا .

وفكرت الملكة الآن لا فى استرداد سيليزيا فحسب ، بل فى تقطيع أوصال بروسيا ضماناً لها من أطماع فردريك [٨٠] . وقد أقلقها مؤقتاً انتصار الفرنسيين على حلفائها الإنجليز فى فونتنوا (١١ مايو ١٧٤٥) ، ولكنها فى ذلك الشهر أرسلت جيشها الرئيسى إلى سيليزيا وأصدرت إليه الأمر بالدخول فى المعركة . والتقى النمساويون الذين عززتهم فرقة سكسونية بفردريك فى هوهنفريدبيرج (٤ يونيو ١٧٤٥) . هنا أنقذته براعته التكتيكية ، فقد نشر خيالته ليستولوا على تل استطاعت مدفعيته أن تقصف منه مشاة العدو . وبعد ساعت من التقتيل انسحب النمساويون والسكسون تاركين وراءهم أربعة آلاف قتيل وسبعة آلاف أسير وكانت تلك المعركة الفاصلة فى الحروب السيلزية .

وعادت انجلتره تطوع دبلوماسيتها لمقضيات السلام . فقد أكرهتها غزوة ١٧٤٥ الاستيوارتية على سحب خيرة جندها من فلاندر ، واستولى المرشال دساكس على المدينة تلو المدينة لفرنسا ؛ وحتى على القاعدة الإنجليزية الكبرى فى أوستند ؛ وخشى جورج الثانى أن يصل الفرنسيون

المنتصرون إلى إمارته المحبوبة هانوفر . أما البرلمان البريطانى الذى خلع ولبول لحبه السلام فقد مل الآن حرباً كلفت الملايين من الدنانير الغالية ، فضلا عن آلاف الرجال الذين يمكن تعويضهم ، وناشد المبعوثون الإنجليز ماريا تريزا أن تصل إلى تفاهم مع فردريك تمكيناً للقوات النمساوية والإنجليزية من التركيز على فرنسا التى نفخ فيها العافية قائد كادت انتصارته تعدل غرامياته . ولكن الملكة أبت . فهددتها انجلتره بسحب كل معونة وإنهاء كل دعم مالى ، ولكنها أصرت على الرفض . فدعت انجلتره فردريك إلى مؤتمر فى هانوفر ، وهناك وقعت مع ممثليه صلحاً منفرداً (٢٦ أغسطس ١٧٤٥) ، وقبلت انجلتره بمقتضى هذا الصلح شروط معاهدة برلين . التى أكدت ملكية بروسيا لسيليزيا ، ووافق فردريك على تأييد انتخاب الدوق فرانسس ستيفن امبراطوراً . وفى ٤ أكتوبر . فى فرانكفورت . توج فرانسس إمبراطور ، وأصبحت ماريا تريزا إمبراطورة .

وأمرت قوادها بأن يواصلوا الحرب . فقاتلوا البروسيين فى زور بيوهيميا (٣٠ سبتمبر) وفى هينيرزدورف (٢٤ نوفمبر) ، وهزم النمساويون مرتين رغم تفوقهم العددى . وتقدم خلال ذلك جيش بروسى يقوده ليوبولد أمير أنهالت — دساو فى سكسونيا ، وعند كيسلدورف (١٥ ديسمبر) سحق القوات التى تحمى درسدن . ودخل فردريك درسدن قادماً إليها بعد النصر . دون مقاومة وفى شهامة وسماحة ؛ فحظر أعمال النهب والسلب . وطمأن أبناء أوغسطس الثالث الذين فروا إلى براغ . وعرض الإنسحاب من سكسونيا إذا انضم الملك الناخب إلى انجلتره فى الاعتراف بتملك فردريك لسيليزيا وكف عن مساعداته لماريا تريزا ، ووافق أوغسطس . ووجدت ماريا تريزا نفسها وحيدة بعد أن تخلت عنها انجلتره وسكسونيا . فأبرمت معاهدة درسدن (٢٥ ديسمبر ١٧٤٥) التى نزلت فيها عن سيليزيا ومقاطعة جلاتز لبروسيا . وهكذا وضعت الحرب السيليزية الثانية أوزارها .

وفقدت حرب الوارثة النمساوية الآن معناها ، ولكنها استمرت ؛ فحاربت فرنسا النمسا وانجلتره على السلطة فى فلاندر ؛ وحاربت فرنسا

وأسبانيا والنمسا وسردينا على السلطة فى إيطاليا . وكان لانتصارات النمساويين فى إيطاليا ما يقابلها من انتصارات للفرنسيين فى الأراضى المنخفضة . وأخيراً أكره الإعياء المالى ، لا أى نفور من المذابح ، المتخاصمين على الصلح . وانتهت حرب الوراثة النمساوية بنهاية مؤسفة بمقتضى معاهدة إكس‌لاشابل ، بعد مفاوضات طالت من إبريل إلى نوفمبر ١٧٤٨ ، وثبت بها استيلاء فردريك على سيليزيا ، وكان هذا الكسب القيم الوحيد الذى استطاعت أى دولة من الدول الظفر به لقاء ثمانية أعوام من التنافس فى التدمير . فردت فرنسا الأراضى المنخفضة الجنوبية إلى النمسا رغم انتصارات ساكس ؛ واعترفت بالأسرة الهانوفرية المالكة فى انجلتره ، ووافقت على طرد المطالب الشاب بالعرش من الأراضى الفرنسية .

واستراحت الدول ثمانية أعوام حتى يستطيع مخاض النساء أن يعوض النقص فى الجيوش لجولة جديدة فى لعبة الملوك .

٥ — فردريك فى أرض الوطن : ١٧٤٥ — ٥٠ :

قفل الملك الظافر الذى أدركه التعب إلى برلين (٢٨ ديسمبر ١٧٤٥) وأقسم أن « سيكون منذ اليوم سلام إلى آخر حياتى ! » [٨١] ونددت به كل أوربا خارج بروسيا (وندد به بعض الناس داخلها) لصاً غادراً ، وأعجبت به لصاً ناجحاً . واستنكر فولتير مذاخه ولقبه « الأكبر » [٨٢] (أو العظيم) . وكان فردريك قد رد فى ١٧٤١ على احتجاجات الشاعر فقال :

تسألنى كم من الزمن اتفق زملائى على أن يدمروا العالم فيه . وجوابى أنه ليس لى أدنى علم به ، ولكن القتال أصبح فاشية هذا العصر ، وفى ظنى أن أمده سيطول . وقد أرسل لى الأبيه دسان — بيير ، الذى يخصنى بشرف مكاتبتى ، كتاباً جميلا فى طريقة رد السلام إلى ربوع أوربا والحفاظ عليه إلى الأبد ..

وكل ما ينقص الخطة لكى تنجح هو موافقة أوربا وبضعة توافه مماثلة. [٨٣]

وقد قدم لأوربا دفاعه فى كتابه الذى نشر بعد موته باسم « تاريخ

جيلى » ، واعتنق فيه مبدأ مكيافللى الذى غلب فيه مصلحة الدولة على مبادىء فضيلة الفرد .

ربما رأت الأجيال القادمة بدهشة فى هذه المذكرات روايات عن معاهدات أبرمت ثم نقضت . ومع أن لهذه التصرفات سوابق كثيرة ، فإنها ما كانت تشفع للمؤلف لو لم يكن لديه مبررات أفضل يعتذر بها عن سلوكه . إن مصلحة الدولة يجب أن تقوم قانوناً للملوك . ويجوز نقض المحالفات لأى من هذه الأسباب :

١ — حين لا يوفى حليف ما بتعهداته ؛ ٢ — حين يبيت حليف خداعك ، وحين لا يكون أمامك سبيل إلا أن تسبقه إلى خداعه ؛ ٣ — حين تفرض عليك قوة قاهرة تضطرك إلى نقض اتفاقاتك ، ٤ — حين تعوزك الوسائل لمواصلة الحرب .... ويبدو لى واضحاً جلياً أن الفرد الذى لا يتولى منصباً عاماً يجب عليه أن يوفى بوعده بكل أمانة ... فإذا خدع استطاع أن يطلب حماية القوانين له .. ولكن إلى أى محكمة يلجأ الملك إذا انتهك ملك آخر المواثيق التى بذلها له ؟ إن كلمة فرد ما تنطوى على كارثة لرجل واحد فقط ، ولكن كلمة ملك قد تجر كارثة شاملة على أمم برمتها . وهذا كله يمكن اختزاله إلى سؤال واحد هو : هل من الخير أن يهلك الشعب أم أن يخرق الملك معاهدة ؟؟ وأى أبله متردد فى الجواب القاطع عن هذا السؤال ؟ (٨٤)

وقد وافق فردريك اللاهوت المسيحى على أن الإنسان بطبيعته شرير . فلما أعرب مفتش تعليم يدعى زولتسر عن الرأى بأن « ميل البشر الفطرى يتجه إلى الخير أكثر من الشر » رد الملك عليه قائلا « أواه ياعزيزى زولتسر ، إنك لا تعرف هذا النوع الإنسانى اللعين . » (٨٥) . ولم يقتصر فردريك على مجرد تقبل تحليل لاروشفوكو طبيعة البشر على أنها أنانية خالصة ، بل آمن بأن الإنسان لن يقربأى قيد على الجرى وراء مصلحته إن لم يكبحه الخوف من الشرطة فما دامت الدولة هى الفرد مضروباً فى أعداد كثيرة ، وليس هناك شرطة دولية يردعها عن أنانيتها الجماعية . فلا سبيل إذن إلى كبح جماحها إلا أن تخاف سطوة غيرها من الدول . ومن ثم كان أول واجبات « خادم الدولة الأول » (كما سمى فردريك نفسه) أن ينظم قوة الأمة على الدفاع ،

وهى تتضمن السبق بالهجوم — أى أن تفعل بالآخرين ما يبيتون أن يفعلوه بك . وهكذا كان الجيش فى رأى فردريك ، كما كان فى رأى أبيه ، أساس الدولة . لقد أرسى دعائم اقتصاد تشرف عليه الحكومة وتخططه بعناية ، ورعى الصناعة والتجارة ، وبعث عملاءه إلى جميع أرجاء أوربا ليجلبوا مهرة الصناع ، والمخترعين ، والصناعات ، ولكنه أحس أن هذا كله لا غناء فيه آخر الأمر إن لم يصنع من جنوده أفضل جيوش أوربا تدريباً ، وأضبطها نظاماً ، وأجدرها بالثقة والاطمئنان .

أما وقد ملك هذا الجيش ، ومعه بوليس حسن التنظيم ، فإنه لم ير به حاجة إلى الدين معواناً على النظام الاجتماعى . فلما سأله وليم برنزويك ألا يرى أن الدين دعامة من أفضل دعائم سلطة الحاكم ، أجاب « إننى أجد الكفاية فى النظام والقوانين .... لقد كانت الدول تحكم حكماً جديراً بالإعجاب حين لم يكن لدينك وجود » (٨٦) ولكنه قبل أى عون استطاع الدين بذله فى غرس المشاعر الفاضلة التى تعين على « النظام » . وحمى جميع الأديان فى مملكته ، ولكنه أصر على تعيين الأساقفة الكاثوليك لا سيما فى سيليزيا . (كذلك أصر الملوك الكاثوليك على تعيين الأساقفة الكاثوليك . وعين الملوك الإنجليز الأساقفة الانجليكان .) وقرر أن يكون لكل إنسان الحرية فى أن يعبد كما يشاء ، أو لا يعبد على الإطلاق . وشمل هذا الروم الكاثوليك ، والمسلمين ، والتوحيدين ، والملحدين . على أنه كان هناك قيد واحد على هذه الحرية ، فحين كان الجدل الدينى ينقلب إلى السب أو العنف الشديدين ، كان فردريك يخمده كما يخمد أى خطر يهدد السلام الداخلى . وفى سنواته الأخيرة كان أقل تسامحاً مع الهجمات على حكومته منه على الهجمات على الله .

فأى رجل كان ، مرهب أوربا هذا ومعبود الفلاسفة ؟ لم يزد طوله على خمسة أقدام وست بوصات ، وليست هذه بالقامة الشامخة . وقد غلبت عليه السمنة فى شبابه ، ولكنه غدا الآن بعد عشر سنين من الحكم والحرب نحيلا ، عصبياً ، مشدوداً ، وكأنه سلك من الحساسية والنشاط الكهربيين ، له عينان حادتان فيهما ذكاء نفاذ متشكك ، وله قدرة على الفكاهة ، ونكته الذكية لا تقل حدة عن نكت فولتير . كان فى وسعه ، كإنسان لا يمارضه

أحد ، أن يكون غاية فى اللطف ، ولكنه كملكاً كان صارماً ، وندر أن خفف العدل بالرحمة ، فكان يستطيع أن يناقش الفلسفة مع مساعديه وهو يرقب فى هدوء جنوده وهم يعانون الجلد وكان لكلبيه لسان لاذع يجرح أصدقاءه أحياناً . وهو شديد الشح عادة ، كريم بين الحين والحين . وإذ ألف أن يطاع ، فقد أصبح مستبد الطبع ، لا يكاد يطيق اعتراضاً ، وندر أن يلتمس النصيحة ، ولا يعمل بها إطلاقاً . فيه وفاء لأخصائه ، ولكنه يحتقر النوع الإنسانى . نادر الحديث مع زوجته ، يضيق عليها فى النفقة ، ومزق فى وجهها الكشف الذى دونت فيه احتياجاتها فى مسكنة . [٨٧] وكان عادة لطيفاً ودوداً لشقيقته فلهلمينا ، ولكنها هى أيضاً وجدته أحياناً متحفظاً فاتر العاطفة . [٨٨] أما غيرها من النساء ، باستثناء الأميرات من زواره ، فقد باعد ما بينهن وبينه ؛ ولم يكن به ميل للطائف الأنثى ومفاتنها ، سواء الجسدية أو الخلقية ، وقد أبغض ثرثرة الصالونات . وآثر الفلاسفة والشبان ملاح الوجوه ، وكثيراً ما صحب أحد هؤلاء إلا مسكنه بعد العشاء . [٨٩] وربما كان حبه للكلاب أكثر حتى من حبه لهؤلاء . وكان أحب رفاقه إليه فى أخريات عمره كلابه السلوقية التى كانت تنام فى فراشه ؛ وقد أمر بإقامة أنصاب على قبورها ، وبأن يدفن بجوارها . [٩٠] لقد وجد أن من العسير عليه أن يكون قائداً ناجحاً وإنساناً محبوباً فى وقت واحد .

وفى ١٧٤٧ أصيب بنوبة فالج وظل فاقد الوعى نصف ساعة . [٩١] بعد هذا قاوم ضعف صحته بالعادات الثابتة والحمية ؛ ينام على حشية رقيقة فوق سرير بسيط قابل للطى . ويستجلب النوم بالقراءة . وكان يقنع فى منتصف عمره هذا بالنوم خمس ساعات أو ستاً فى اليوم ، فيستيقظ فى الثالثة ، أو الرابعة ، أو الخامسة صيفاً ، وبعد ذلك شتاء . لا يقوم على خدمته غير خادم واحد — أهم واجباته أن يوقد له ناره ويحلق له لحيته ؛ وكان يحتقر الملوك الذين لا يستغنون عن مساعدين يلبسونهم ملابسهم . ولم يعرف عنه نظافة الشخص أو أناقة الملبس . فكان ينفق نصف يومه وهو فى روبه ، ونصفه فى سترة الحارس . يبدأ فطوره بعدة أكواب من الماء ، ثم عدة أقداح من القهوة ، ثم يتناول بعض الكعك ، ثم كثيراً من الفاكهة . وبعد الفطور يعزف على الفلوت ، متأملا شئون السياسة والفلسفة وهو ينفخ آليته .

وفى نحو الحادية عشرة من كل صباح يحضر تدريب جنده وعرضهم . وكانت وجبة الظهيرة الرئيسية تختلط عادة بالمداولات . ثم ينقلب بعد الظهر مؤلفاً ، فينفق ساعة أو ساعتين فى كتابة الشعر أو التاريخ ؛ وسنجده مؤرخاً ممتازاً لأسرته ولجيله . فإذا فرغ ساعات للإدارة روح عن نفسه بالحديث مع العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، والموسيقيين . وفى السابعة مساء قد يشارك فى حفلة موسيقية عازفاً على الفولوت . وفى الثامنة والنصف يحل موعد حفلات عشائه المشهورة فى سانسوسى عادة (بعد مايو ١٧٤٧) ، يدعو إليها أخص أخصائه ، وكبار زواره ، وأقطاب أكاديمية برلين . وكان يطلب إليهم أن يكونوا على سجيتهم ، وينسوا أنه ملك ، ويتحدثوا دون خوف ، وهو ما فعلوه فى كل موضوع إلا السياسة . وكان فردريك نفسه يتكلم فى إسهاب ، وعلم ، وذكاء . يقول أمير لين « كان حديثه موسوعياً ، فالفنون الجميلة ، والحرب ، والطب ، والأدب ، والدين ، والفلسفة ، والأخلاق ، والتاريخ والتشريع ، تعرض على بساط البحث كل فى دوره » . (٩٢) ولم ينقص الحفل غير مفخرة واحد حتى يصبح مأدبة للفكر . وقد أقبل فى ١٠ يوليو ١٧٥٠ .

٦ — فولتير فى ألمانيا : ١٧٥٠ — ٥٤

لقد رضى حتى هو عن استقباله . فقد اصطنع فردريك العادات الغالية فى الترحيب به . كتب فولتير لريشليو يقول « تناول يدى ليقبلها ، وقبلت أنا يده ، وقلت إننى عبده . » (٩٣) وأفرد له مسكن أنيق فى قصر سانسوسى ، فوق الجناح الملكى مباشرة . ووضعت خيول الملك ومركباته ، وحوذيوه ، ومطبخه ، تحت تصرفه . وأحاط به أكثر من عشرة خدم يغالون فى العناية به ، وخطب وده عشرات الأمراء ، والأميرات ، والنبلاء ، والملكة ذاتها . وقد عينه الملك كبيراً لأمنائه براتب قدره عشرون ألف فرنك فى السنة ، ولكن أهم واجباته كان تصحيح الفرنسية فى شعر فردريك وكلامه . ولم يتقدمه فى حفلات العشاء غير الملك . وذهب زائر ألمانى إلى أن مطارحاتهما أطرف ألف مرة من أى كتاب » . (٩٤)

وقد قال فولتير بعد ذلك مستحضراً هذه الأحاديث « لم يحظ مكان آخر فى الدنيا بحرية أكبر فى الحديث عن خرافات الإنسان . » (٩٥)

وقد انتشى طرباً بهذا كله . فكتب إلى دارجنتال (سبتمبر ١٧٥٠) يقـــول :

إننى أجد مرفأ ألجأ إليه بعد ثلاثين عاماً من العواصف . أجد حماية ملك ، وحديث فيلسوف ، وخلالا لطيفة لإنسان محبوب ، كلها مجتمعة فى رجل ظل ستة عشر عاماً يتوق إلى تعزيتى عن عثرات حظى وتأمينى من أعدائى ... هنا أطمئن إلى مصير هادىء إلى النهاية . وإذا جاز للإنسان أن يطمئن إلى أى شىء ، فهو خلق ملك بروسيا . (٩٦)

وكتب إلى مدام دنيس يطلب إليها أن تحضر وتعيش معه فى فردوسه . على أنها بحكمة آثرت باريس والعشاق الأصغر ، فحذرته من إطالة المكث فى برلين . وقالت فى خطابها إن صحبة السلطان لا يؤمن جانبها ، فهو يغير رأيه ويبدل محاسيبه ، وعلى المرء أن يكون على حذر دائماً من أن يعارض مزاجه أو إرادته . وسيجد فولتير نفسه إن عاجلا أو آجلا خادماً وسجيناً أكثر منه صديقاً . (٩٧)

وأرسل الفيلسوف الأحمق الخطاب إلى فردريك فكتب له هذا الرد (٢٣ أغسطس) وهو كاره أن يفقد الغنيمة التى تريد الظفر بها :

قرأت الخطاب الذى كتبه ابن أختك من باريس . وإنى لأقدر لها الود الذى تكنه لك . ولو كنت مكان مدام دنيس لفكرت كما تفكر ، أما وأنا ما أنا ، فإنى أفكر بطريقة أخرى . وإنه ليحزننى أن أكون سبباً فى تعاسة عدو ، فكيف إذن أبغى بلية رجل أقدره ، وأحبه ، يضحى من أجلى ببلده وكل ما هو عزيز على الإنسانية ، لا يا عزيزى فولتير ، لو أننى تبينت أن إنتقالك إلى هنا سيلحق بك أقل أذى لكنت أول من يثنيك عنه . وإنى لأوثر سعادتك على سرورى المفرط بتملكك . ولكنك فيلسوف ، وكذلك أنا ، فأى شىء إذن أكثر طبيعية ، وبساطة ، وتمشياً مع نظام الأشياء ، من أن يمنح فلاسفة خلقوا ليعيشوا معاً ، تربطهم دراسات واحدة ، وميول واحدة ،

وطريقة تفكير مشابهة ، يمنح بعضهم بعضاً هذا الإشباع لرغباتهم ؟ ... إنني موقن بأنك ستكون سعيداً جداً هنا ، وأنك ستعد أباً للأدب ولأصحاب الذوق ، وأنك واجد فى كل التعزيات التى يمكن أن يتوقعها رجل له كفايتك من رجل يقدره . مساء الخير . (٩٨)

ولم يقتضى تدمير هذا الفردوس من أكبر الفيلسوفين سناً أكثر من أربعة أشهر . لقد كان فولتير مليونيرا ، ولكنه ، لم يطق أن يفوت عليه فرصة قد تضخم ثروته . ذلك أن بنك سكسونيا كان قد أصدر أوراقاً سميت « شهادات إيراد » ، هبطت إلى نصف قيمتها الأصلية . وقد اشترط فردريك فى معاهدة درسدن دفع ثمن الأوراق التى اشتراها البروسيون ، عند استحقاقها بقيمتها الإسمية ذهباً ، واشترى بعض البروسيين الخبثاء بعض هذه الأوراق بثمن بخس فى هولنده ثم صرفوا ثمنها كاملا فى بروسيا . وفى مايو ١٧٤٨ حظر فردريك هذا الاستيراد إنصافاً لسكسونيا . وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٤٨ استدعى فولتير فى بوتسدام مصرفياً يهودياً يدعى أبراهام هيرش . وفى رواية هيرش أن فولتير طلب إليه أن يذهب إلى درسدن ويبتاع له بمبلغ ١٨,٤٣٠ أيكوسا أوراقاً بسعر خمسة وثلاثين فى المائة من قيمتها الإسمية . وزعم هيرش أنه نبه فولتير إلى أن هذه الأوراق المالية لا يمكن جلبها قانوناً إلى بروسيا ، وأن فولتير وعده بأن يحميه ، وأعطاه خطابات تحويل على باريس وليبزج . وضماناً لهذه المبالغ أودع هيرش لدى فولتير ماسات قدرت من قبل بمبلغ ١٨,٤٣٠ أيكوسا . ولكن فولتير ندم على هذه الاتفاقات بعد رحيل عميله ، وقرر هيرش بعد وصوله إلى درسدن ألا يمضى فى تنفيذ العملية ، وأوقف فولتير الدفع على خطابات التحويل ، وعاد المصرفى إلى برلين . ويقول هيرش إن فولتير حاول أن يرشوه ليسكت ، بشراء ماسات قيمتها ثلاثة آلاف ايكوس . وتنازعا على تقدير القيمة وأمسك فولتير برقبة هيرش وصرعه ؛ (٩٩) فلما لم يتلق ترضية أكثر من هذا جعل السلطات تقبض عليه ، وعرض النزاع على المحكمة علناً (٣٠ ديسمبر) . وفضح هيرش خطة فولتير لشراء الأوراق السكسونية ، فأنكرها فولتير زاعماً أنه أرسل هيرش إلى درسدن لشراء فراء ، ولكن أحداً لم يصدقه .

فلما سمع فردريك بهذه الورطة بعث برسالة غاضبة من بوتسدام إلى فولتير فى برلين (٢٤ فبراير ١٧٥١) :

لقد سرنى أن أستقبلك فى بيتى ؛ وقدرت عبقريتك ، ومواهبك ، وعلمك ، وكان لى ما يبرر اعتقادى بأن رجلا فى مثل سنك أعياه النضال مع الكتاب والتعرض للعاطفة يجىء إلى هذا المكان ليحتمى به احتماءه بمرفأ آمن .

ولكنك حين وصلت انتزعت منى بصورة غريبة بعض الشىء أمراً بألا أكلف فريرون بكتابة الأنباء من باريس ، وكان فى من الضعف ... ما جعلنى أمنحك سؤلك ، مع أنه ليس من حقك أن تقرر أى الأشخاص يجب أن أستخدم . وقد شعرت بأن باكولار دارنو (شاعر فرنسى فى بلاط فردريك) أساء إليك ، والرجل الكريم السمح كان يعفو عنه ، أما المنتقم فيطادر أولئك الذين يطيب له أن يبغضهم ... ومع أن دارنو لم يسىء إلى بشىء ، فإنى طردته بسببك ... ثم كانت لك مع يهودى خصومة هى أقذر الخصومات فى الدنيا ، وقد أثارت فضيحة رهيبة فى طول المدينة وعرضها . ومسألة شهادات الإيراد تلك معروفة جيدا فى سكسونيا حتى لقد شكوا الى منها شكاوى مرة .

وإننى من جهتى كنت محافظاً على الهدوء والسلام فى بيتى حتى وصلت ؛ وإنى أنذرك بأنك إن كنت مولعاً بالدس والتآمر فقد أخطأت اختيار من يعينك عليه . فإنى أحب الناس المسالمين الهادئين الذين لا يشيعون فى سلوكهم انفعالات الدراما المأساوية . فإن اعتزمت العيش عيشة الفلاسفة ، فسيسرنى أن ألقاك ، أما إن أسلمت نفسك لكل سورات غضبك وانفعالك ودخلت فى مشاجرات مع كل الناس ، فإنك لن تحسن إلى بمجيئك هنا ، وخير لك أن تبقى فى برلين .

وحكمت المحكمة لصالح فولتير . وأرسل إلى الملك اعتذارات ذليلة وعفا عنه فردريك ، ولكنه نصحه بأن « يكف عن الشجار ، سواء مع العهد القديم أو الجديد . » [١٠٠] وبعدها أنزل فولتير بيتاً ريفياً لطيفاً

يسمى « بيت المركيز » ويقع قرب سانسوسى . وأرسل له الملك تأكيدات باحترامه المجدد ، ولكن حماقة فولتير لم تذهب به إلى حد الثقة بها . وبعث له الملك الشاعر قصائد يطلب إليه تهذيب فرنسيتها ، وأضنى فولتير نفسه فيها كثيراً وأغضب كاتبها بإدخال تغيرات حادة عليها .

ونظم فولتير الآن قصيدته المسماة « فى القانون الطبيعى » ؛ وقد حاولت أن تجد الله فى الطبيعة ، مقتدية فى ذلك بطريقة الكسندر بوب على الأخص . وأهم من هذه القصيدة مضموناً قصيدة « عصر لويس الرابع عشر » التى أكملها وصقلها خلال تلك الأشهر المقلقة ثم نشرها فى برلين (١٧٥١) . وكان حريصاً على الفراغ من طبعها قبل أن يضطر لسبب ما إلى الرحيل عن ألمانيا لأنها لن تكون بمأمن من الرقابة على المطبوعات إلا فى رعاية فردريك . كتب إلى ريشليو فى ٣١ أغسطس « تعلم جيداً أنه ليس هناك (فى باريس) رقيب صغير واحد للكتب لايعتبر تشويه عملى أومصادرته حسنة أوواجباً».[١٠١] وحظر بيع الكتاب فى فرنسا ، وأصدر تجار الكتب فى هولنده وانجلتره طبعات مسروقة لم ينقدوا فولتير عليها شيئاً ؛ فإذا عرفنا هذافهمنا حبه للمال فهماً أفضل . لقد كان عليه أن يحارب « تجار الكتب الأوغاد »[١٠٢] لا رجال الدين والحكومات فحسب .

و « عصر لويس الرابع عشر » أكثر أعمال كفولتير دقة وأمانة فى الإعداد فقد خطط له فى ١٧٣٢ ، وبدأه فى ١٧٣٤ ، ونحاه جانباً فى ١٧٣٨ ، ثم عاد إليه فى ١٧٥٠ . وقد قرأ له مائتى مجلد ، وتلالا من المذكرات غير المنشورة ، واستشار عشرات الناس ممن بقوا على قيد الحياة بعد العصر العظيم ، ودروس الأوراق الأصلية التى كتبها أبطال العصر أمثال لوفوا وكولبير ، وحصل من الدوق دنواى على المخطوطات التى خلفها لويس الرابع عشر ، ووجد وثائق هامة لم تستخدم إلى ذلك الحين فى دار محفوظات اللوفر .[١٠٣] ووازن بين الأدلة المتضاربة بحكمة وعناية ، وحقق مرتبة عالية من الدقة . لقد حاول مع مدام دشاتليه أن يكون عالماً ففشل ، والآن اتجه إلى كتابة التاريخ ، وكان نجاحه فى ذلك ثورة .

وقد أعرب قبل ذلك بزمن طويل عن هدفه فى خطاب تاريخه ١٨ يناير ١٧٣٩ : « أن هدفى الأهم ليس التاريخ السياسى والحربى ، بل تاريخ الآداب والفنون ، تاريخ التجارة ، تاريخ الحضارة — وبعبارة موجزة ، تاريخ العقل الإنسانى . « وأعرب عنه إعراباً أفضل حتى من هذا فى خطاب كتبه لتيبريو فى ١٧٣٦ . يقول :

حين طلبت حكايات ونوادر عن عصر لويس الرابع عشر لم أكن أقصد الملك ذاته بقدر ما أقصد الآداب والفنون التى ازدهرت فى عهده . وإنى لأوثر تفاصيل عن راسين وبوالو ، وكينو ولولى ، وموليير ، ولوبرون ، وبوسويه ، وبوسان ، وديكارت ، وغيرهم ، لا عن معركة ستنكركى . لم يبق من أولئك الذين قادوا الجيوش والأساطيل إلا اسمهم ، ولا ثمر يجنيه النوع الإنسانى من مائة معركة كسبت ، أما الرجال العظماء الذين ذكرتهم فقد جهزوا مباهج صافية باقية لأجيال لم تولد . فقناة تربط بين بحرين ، أو لوحة بريشة بوسان ، أو مأساة رائعة ، أو حقيقة يماط عنها اللثام ، هذه كلها أشياء أثمن ألف مرة من جميع حوليات البلاط ، وكل قصص الحرب . وأنت تعلم أن العظماء من الرجال هم الأوائل فى نظرى ، أما «الأبطال» فهم الأواخر . والعظماء عندى هم كل الذين بزوا غيرهم فى النافع المبهج . أما الذين يخربون الأقطار فليسوا أكثر من أبطال . (١٠٤)

وربما رفع فولتير الأبطال العسكريين من مكانهم فى المؤخرة إذا أنقذت انتصاراتهم الحضارة من الهمجية ؛ ولكن كان من الطبيعى أن يجد الفيلسوف الذى لم يعرف سلاحاً غير الألفاظ متعة فى رفع أضرابه إلى مكان مرموق ، واسمه خير بيان لنظريته لأنه لم يزل بعد قرنين من الزمان أبرز الأسماء فى ذكرنا لعصره . وكانت نيته فى الأصل أن يخصص الكتاب برمته للتاريخ الثقافى . ثم أشارت عليه مدام دشاتليه بكتابة « تاريخ عام » للأمم ؛ وعليه فقد ألف فصولا فى السياسة ، والحرب ، والبلاط ، ليجعل المجلد تتمة متجانسة لكتاب أكبر عنوانه « مقال فى التاريخ العام » كان يتخلف تحت قلمه . ولعل هذا هو السبب فى أن التاريخ الثقافى غير مندمج فى بقية المجلد ، فالنصف الأول من الكتاب مخصص للتاريخ السياسى والحربى ، ثم تأتى أقسام

عن العادات « خصائص ونوادر » ، والحكومة ، والتجارة ، والعلوم ، والأدب ، والفن ، والدين .

وتطلع الكاتب المطارد خلفه فى إعجاب إلى عهد كان الملك فيه يكرم الشعراء (إذا لم يحيدوا عن الجادة) ؛ وربما كان تشديده على دعم لويس الرابع عشر للآداب والفنون هجوماً جانبياً على عدم اكتراث لويس الخامس عشر بمثل هذه الرعاية . أما وقد برزت الآن عظمة العصر الماضى فى هذه الذكرى المموهة « وأغفل ذكر استبداده وغارات خياليه على البيوت ، فإن فولتير راح يضفى شيئاً من الكمال على الملك الشمس ويطرب لانتصارات القواد الفرنسيين — وإن وسم بالعار تدمير البلاتينات . ولكن النقد يخفى رأسه أمام هذه المحاولة الحديثة الأولى لكتابه التاريخ المتكامل . وقد أدرك المعاصرون الفطنون أن هذه بداية جديدة — فهى التاريخ يترجم للحضارة ، التاريخ الذى حوله الفن والنظرة الصحيحة أدباً وفلسفة . فما انقضى عام على نشره حتى كتب إيرل تشسترفيلد لولده يقول :

لقد أرسل إلى فولتير من برلين كتابه « تاريخ عصر لويس الرابع عشر » وقد جاءنى فى أوانه ، ذلك أن اللورد بولتبروك علمنى مؤخراً كيف ينبغى أن يقرأ التاريخ . وها هو ذا فولتير يرينى كيف ينبغى أن يكتب ... إنه تاريخ الفهم الإنسانى ، بقلم عبقرى لينتفع به الأذكياء من الناس .... وقد تحرر مؤلفه من الأهواء الدينية والفلسفية والسياسية والقومية أكثر من أى مؤرخ صادفته إطلاقاً . ومن ثم فهو يروى هذه الأمور كلها بصدق ونزاهة على قدر ما تسمح له بعض الاعتبارات التى لا مفر دائماً من مراعاتها . (١٠٥)

وكان فولتير خلال جهوده الأدبية برما بوضعه القلق فى بلاط فردريك : ذلك أن لامترى ، الرجل المادى النزعة المرح الطبع الذى كان كثيراً ما يقرأ للملك ، نقل فى أغسطس ١٧٥١ إلى فولتير ملاحظة أبداها مضيفهما : « سأحتاج إليه (أى فولتير) سنة أخرى على الأكثر (مهذباً لفرنسية الملك) ؛ إن الناس يعتصرون البرتقالة ثم يلقون قشرتها » . (١٠٦) ويتشكك البعض فى صحة نسبة هذه الملاحظة إلى فردريك ، إذ لم يكن فى طبعه أن يفضى بسره لأحد على هذا النحو ، ولم يكن مستحيلا على لامترى أن يتمنى إقصاء فولتير

عن حظوته . كتب فولتير إلى مدام دنيس فى ٢ سبتمبر يقول « بذلت قصارى جهدى لكيلا أصدق لامترى ، ولكنى ما زلت حائراً . » ثم كتب إليها فى ٢٩ أكتوبر يقول « ما زلت أحلم بقشرة البرتقالة تلك ... وما أشبهنى بذلك الرجل الذى كان يسقط من برج فلما وجد نفسه مرتاحاً فى الهواء قال لا بأس بهذا الوضع لو دام . » (١٠٧) .

وكان فى ألمانيا رجل فرنسى آخر شارك فى المهزلة . وقال فردريك إنه لابد من زوال واحد من رجلين فرنسيين فى بلاط واحد (١٠٨) ذلك أن موبرتوى عميد أكاديمية برلين ، كان لا يتقدم عليه مقاماً بين ضيوف الملك فى سانسوسى غير فولتير ؛ وكان كلا الرجلين ضيفاً بهذا الجوار ؛ ولعل فولتير لم ينس أن مدام دشاتليه كانت يوماً ما مغرمة بموبرتوى . وفى أبريل ١٧٥١ أقام فولتير وثمة دعا إليها موبرتوى فلبى الدعوة . وقال له فولتير إن كتابك « عن السعادة » أمتعنى كثيراً ، بإستثناء بضعة غوامض سنناقشها معاً ذات مساء . » وعبس موبرتوى وقال « غوامض » ؟ قد يكون هناك غوامض بالنسبة لك يا سيدى . » ووضع فولتير يده على كتف العالم وقال « سيدى العميد ، إننى أقدرك ، فأنت رجل شجاع ، تريد الحرب . فلتخوضها إذن ، ولكن دعنا الآن نأكل شواء الملك . » (١٠٩) وكتب إلى دارجنتال (٤ مايو) يقول « لم يؤت موبرتوى من أداب السلوك ما يفتن كثيراً . إنه يقيس أبعادى بربعيته فى خشونة ؛ ويقولون أن معلوماته تخالطها الحسد ... إنه رجل فيه بعض الفظاظة ، وليس اجتماعياً جداً . » ثم كتب إلى ابنة أخته دنيس فى ٢٤ يوليو يقول « لقد أشاع موبرتوى بدهاء أننى وجدت « أعمال » الملك رديئة جداً ، وأننى قلت لبعضهم وأنا أتسلم بعض أشعار الملك (ألايتعب من إرسال غسيله القذرإلى لأغسله » ؟ (١١٠) وليس من المؤكد أن موبرتوى حمل هذه الشائعة إلى فردريك ، ولكن فولتير ظنه مؤكداً ، فعقد النية على الحرب .

وكان من إسهامات موبرتوى فى العلم « مبدأ الحركة الدنيا » — أى أن كل النتائج فى عالم الحركة تنجز بأقل قوة تكفى لأحداث النتيجة . وقد تعثر صموئيل كوينيج ، الذى دان لموبرتوى بعضويته فى أكاديمية برلين ، على

وثيقة قيل إنها نسخة من خطاب غير منشور كتبه ليبنتز ، وسبق فيه إلى وضع هذا المبدأ ؛ وكتب كوينيج مقالاعن هذا الكشف ، ولكنه عرضه على موبرتوى قبل أن ينشره ، وأبدى استعداده للعدول عن النشر إذا اعترض عليه العميد . غير أن موبرتوى وافق على نشره ، ربما بعد أن اطلع عليه على عجل . وطبع مقال كوينيج فى عدد مارس ١٧٥١ من مجلة « أكتا إيروديتورم » التى تصدر فى ليبزج ، فأثار نشره ضجة . وطلب مويرتوى إلى كوينيج أن يقدم خطاب ليبنتز إلى الأكاديمية ، ورد كوينيج بأنه لم ير غير نسخة منه بين أوراق صديقه هنتسى الذى شنق فى ١٧٤٩ ، وأنه نقل نسخة عن هذه النسخة ، وهو مرسلها الآن إلى موبوتوى ، ولكن هذا عاد فطالب بالأصل . واعترف كوينيج بأن الأصل لا يمكن العثور عليه الآن لأن أوراق هنتسى تبددت بعد موته . وعرض موبرتوى الأمر على الأكاديمية (٧ أكتوبر ١٧٥١) ، فأرسل سكرتيرها إلى كوينيج أمراً نهائياً بإبراز أصل الخطاب ، فلم يستطع . وعليه فى ١٣ أبريل ١٧٥٢ حكمت الأكاديمية بأن خطاب ليبنتز المزعوم مزيف . ولم يحضر موبرتوى هذه الجلسة لأنه شكا نزفاً سببته إصابة بالسل . [١١١] وأرسل كوينيج استقالته من الأكاديمية ، وأصدر « نداء إلى الشعب » (سبتمبر ١٧٥٢) .

وكان كوينيج قد أنفق مرة عامين فى سيريه ضيفاً على فولتير ومدام دشاتليه . وقرر فولتير أن يضرب ضربة دفاعاً عن صديقه القديم ضد عدوه الحالى . فى عدد ١٨ سبتمبر من مجلة « المكتبة العقلانية » ظهر مقال بعنوان « رد عضو فى أكاديمية برلين على عضو فى أكاديمية باريس » دافع من جديد عن كوينيج وخلص إلى أن :

« السيد موبرتوى مذنب أمام الدوائر العلمية الأوربية لا بالانتحال والخطأ فحسب ، بل باستغلال منصبه لمصادرة النقاش الحر ، واضطهاد رجل شريف .. وقد احتج عدة أعضاء من أكاديميتنا على هذا الإجراء الفاضح ، ولولا خشيتهم من إغضاب الملك لتركوا الأكاديمية . » [١١٢]

وكان المقال غفلا من الإمضاء ، ولكن فردريك عرف لمسة فولتير

الغادرة . وبدلا من أن يقذفه بصاعقة ملكية ، كتب رداً وصف فيه الرد المذكور بأنه« خبيث ،جبان ، دنىء» ووسم فيه كاتبه بأنه « دجال لايستحى » ، « ولص قبيح » و « ملفق للطعون الغبية ». (١١٣) وكان هذا الرد أيضاً غفلا من التوقيع ، ولكن صفحة الغلاف كانت تحمل الأسلحة البروسية ومعها النسر ، والصولجان ، والتاج . وأحس فولتير أن كبرياءه قد جرحت ، ولم يكن فى طاقته قط أن يترك لعدو الكلمة الأخيرة ، ولعله وطن النفس على أن يختصم الملك . وكتب لمدام دينس (١٨ أكتوبر ١٧٥٢) يقول « لست أملك صولجاناً ، ولكنى أملك قلماً . » ثم استغل غاية الاستغلال نشرموبرتوى مؤخراً (درسدن ، ١٧٥٢) لسلسلة من « الرسائل » اقترح فيها حفر ثقب فى الكرة الأرضية ، إلى مركزها إن أمكن ، لدراسة تركيبها ، ونسف هرم من أهرام مصر للكشف عن أسرار هدفها وتصميمها ، وبناء مدينة لا يتكلم الناس فيها غير اللاتينية حتى يقضى الطلاب فيها عاماً أو عامين ويتعلموا تلك اللغة كما تعلموا لغتهم القومية ، وألا ينقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض ، وأن جرعة كافية من الأفيون قد تمكن متعاطيها من التنبؤ بالمستقبل ، وأن العناية الصحيحة بالجسم قد تتيح لنا إطالة العمر إلى مالا نهاية .(١١٤) وانقض فولتير على هذه الرسائل انقضاضة على فريسة سهلة ، مغفلا بعناية أى فقرة فيها إدراك سليم أو أى لمحات من الفكاهة ثم قذف بالباقى فى مرح على قرون دعابته الذكية . وهكذا كتب فى نوفمبر ١٧٥٢ « خطاب الدكتور أكاكيا ، طبيب البابا المقيم . » وكلمة Diatribe (ومعناها الآن هجاء) كانت تعنى يومها خطاباً ، أما akakia فكلمة يونانية معناها « غرارة أو غفلة » . وقد بدأ الطبيب المزعوم فى براءة ظاهرة بتشككه فى أن يكون رجل عظيم كعميد أكاديمية برلين مؤلفاً لكتاب بهذا السخف . وعلى أى حال « ليس فى عصرنا هذا ما هو أشيع وأعم من أن يزيف مؤلفون صغار جهل عن العالم ، تحت أسماء مشهورة ، كتباً غير جديرة بالمؤلفين المزعومين . فلابد أن هذه الرسائل هى من هذا الضرب من التزييف ، لأنه محال أن يكون العميد العلامة قد

كتب هذا الهراء . وخص الدكتور أكاكيا بالاحتجاج على ذلك الاقتراح بعدم نقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض — وهو اقتراح ربما كان يمس وتراً متعاطفاً فى صدر فولتير الموجع ، ولكن « أينكر الموكل على محاميه أتعابه التى يستحقها لأنه خسر قضيته ؟ إن الطبيب يعد مريضه بأن يعينه لا بأن يشفيه . وهو يبذل ما فى وسعه وينقد أجره على هذا الأساس » ، وكيف يكون شعور عضو الأكاديمية إذا اقتطع قدر معين من الدوقاتيات من راتبه السنوى نظير كل غلطة ارتكبها ، أو كل قول سخيف فاه به ، خلال العام ؟ وراح الطبيب يفصل ما اعتبره فولتير أغلاطاً أو سخافات فى أعمال موبرتوى .(١١٥)

ولم يكن هجاؤه هذا بالبراعة التى يخالها الناس عموماً ، فكثير منه معاد وبعض ما فيه من نبش عن الأخطاء تافه غير كريم ؛ ونحن نخفى حقدنا فى أيامنا هذه بأدب أكثر . ولكن فولتير سر بتمثيليته هذه سروراً لم يستطع معه أن يقاوم بهجة رؤيتها مطبوعة . فأرسل مخطوطة منها إلى ناشر فى لاهاى ، وأرى الملك فى الوقت نفسه مخطوطة أخرى . واستمتع فردريك بقراءة الهجاء (أو هكذا قيل) وكان بينه و بين نفسه يوافق على أن موبرتوى فيه أحياناً غرور لا يطاق ، ولكنه نهى فولتير عن نشره ، وواضح أنه وجد فى النشر مساساً بكرامة أكاديمية برلين وسمعتها . وسمح له فولتير بأن يحتفظ بالمخطوطة ، ولكن الهجاء نشر رغم ذلك فى هولندة . وسرعان ما أ انبثت ثلاثون ألف نسخة منه فى أرجاء باريس ، وبروكسل ، ولاهاى ، وبرلين . ووصلت نسخة منها ليد فردريك ، فأعرب عن غضبه بعبارات جعلت فولتير يفر إلى مسكن خاص فى العاصمة . وفى ٢٤ ديسمبر ١٧٥٢ رأى من نافذته جلاد الدولة الرسمى يحرق كتابه على الملأ . وفى أول يناير ١٧٥٣ رد لفردريك مفتاحه الذهبى بوصفه أميناً للقصر ، وصليب الاستحقاق الذى خلعه عليه .

وكان الآن مريضاً حقاً ، تلهب الحمرة جبينه ، وترهق الدوسنتاريا أمعاءه ، وتبرى الحمى جسده . فلزم فراشه فى ٢ فبراير ولم يبرحه طوال

أسبوعين ، وبدا عليه كما قال زائر عاده فى مرضه « كل مظهر الهيكل العظمى . » [١١٦] ورق له قلب فردريك ، فأوفد طبيبه الخاص ليرعى الشاعر . فلما تحسنت صحته كتب إلى الملك يستأذنه فى زيارة بلومبيير ، فلعل مياهها تشفى حمرته . وأمر فردريك سكرتيره بأن يرد عليه (١٦ مايو) « بأن فى استطاعته أن يترك هذه الخدمة حين يشاء ، وأنه لا حاجه به للاعتذار بمياه بلومبيير ، ولكن عليه أن يتكرم قبل رحيله بأن يرد إلى ... مجلد القصائد الذى عهدت به إليه . » [١١٧] وفى الثامن عشر من الشهر دعا الملك فولتير للعودة إلى مسكنه القديم فى سانسوسى . وأتى فولتير ، ومكث ثمانية أيام ، وبدا أنه أصلح ما بينه وبين الملك — ولكنه احتفظ بقصائد الملك . وفى ٢٦ مارس ودع فردريك ، وتظاهر كلاهما بأن الفراق إلى حين . وقال الملك « اعتن بصحتك قبل كل شىء ، ولا تنس أننى أنتظر عودتك بعد استشفائك بالمياه ... رحلة طيبة ! » [١١٨] ولم يلتقيا بعدها قط .

وهكذا انتهت هذه الصداقة التاريخية ، ولكن العداوات السخيفة استمرت . فقد انطلق فولتير مع سكرتيره ومتاعه يتأرجح فى مركبته إلى الأمان فى ليبزج السكسونية . هناك تلكأ ثلاثة أسابيع بحجة ضعف صحته ، وأضاف مزيداً إلى « الخطاب » . وفى ٦ أبريل تلقى رسالة من موبرتوى يقول فيها :

تقول الجرائد إنك تخلفت فى ليبزج لمرضك ، ولكن معلوماتى الخاصة تؤكد لى أنك لا تمكث هناك إلا لطبع مزيد من القذف فى .. إننى لم أسىء إليك قط ، وما كتبت ضدك ولا قلت شيئاً قط . لقد كنت على الدوام أراه أمراً لا يليق بى أن أرد على السفاهات التى رحت تذيعها عنى ... ولكن إذا صح أن فى نيتك العودة إلى مهاجمتى فى مسائل شخصية ، ... فإننى أنذرك بأن فى من العافية ما يمكننى من العثور عليك أنى كنت ، وصب جام غضبى وانتقامى عليك . [١١٩]

ورغم ذلك طبع فولتير « الخطاب » المنقح ، وطبع معه رسالة موبوتوى . وأصبح الكتيب ، الذى تضخم الآن حتى بلغ خمسين صفحة ، حديث القصور والبلاطات فى ألمانيا وفرنسا . وكتبت فلهلمينا من بايرويت إلى فردريك

(٢٤ ابريل ١٧٥٣) تعترف بأنها لم تملك نفسها من الضحك على الخطاب . أما موبرتوى فلم ينفذ تهديده ، كذلك لم يمت غيظاً وكمداً كما ظن البعض ؛ فلقد عمر ست سنوات بعد الدكتور أكاكيا ، ومات بالسل فى بازل عام ١٧٥٩ .

وفى ١٩ أبريل رحل فولتير إلى جوتا ، ونزل فندقاً عاماً بها ، ولكن سرعان ماأقنعه دوق ودوقة ساكس — جوتا بالنزول ضيفاً عليهما فى قصرهما : ولما كان بلاطهما الصغير يهتم بالثقافة ، فقد جمعت الدوقة الأعيان والأدباء ، وقرأ لهم فولتير شيئاً من أعماله ، حتى من قصيدة « لا بوسيل المرحة » . ثم مضى إلى فرنكفورت — أم على — مين ، وهناك أدركته إلهة الانتقام .

ذلك أن فردويك حين تبين أن فولتير يواصل الحرب التى شنها على موبرتوى ، خامرته الظنون فى أن الشاعر المستهتر قد يذيع على الناس القصائد التى كتبها الملك ، والتى لم تزل نسخة منها — طبعت سراً — فى حوزة فولتير وهى قصائد فى بعضها خروج عن اللياقة ، وبعضها يتهكم بالمسيحية ، وبعضها يتحدث عن الأحياء من الملوك حديثاً فيه من الدعاية أكثر مما فيه من الاحترام ، فمن شأنها أن تنفر منه قوى نافعة . وعليه فقد أرسل إلى فربتاج ، المقيم البروسى فى فرانكفورت ، يأمره بحبس فولتير حتى يسلم « ذلك الهيكل العظمى ، الشيطانى » قصائد الملك وشتى الأوسمة التى خلعها عليه إبان « شهر العسل » . وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، ولكنها تعتمد على رضى فردريك اعتماداً لم تجرؤ معه على التدخل فى هذه الأوامر ؛ أضف إلى ذلك أن فولتير كان من الناحية الرسمية لا يزال فى خدمة ملك بروسيا وفى أجازة ممنوحة منه . ومن ثم قصد فربتاج فى أول يونيو فندق الأسد الذهبى الذى وصل إليه فولتير البارحة ، وطلب إليه فى أدب أن يسلمه الأوسمة والقصائد . وسمح فولتير للمقيم بأن يفتش متاعه ويأخذ الأوسمة الملكية ، أما قصائد الملك فقال إنها على الأرجح فى صندوق أرسله إلى همبورج . وأمر فربتاج بوضعه تحت الحراسة حتى يعاد الصندوق من همبورج . وفى ٩ يونيو تعزى الفيلسوف المغيظ بوصول مدام دنيس ،

التى أعانته على التنفيس عن غيظه . وقد راعها هزاله « كنت على يقين من أن هذا الرجل (فردريك) قاتلك ! « وفى ١٨ يونيو وصل الصندوق ، وعثر فيه على المجلد المحتوى على القصائد ، وسلم للمقيم ، ولكن فى اليوم ذاته وصل توجيه جديد من بوتسدام يأمر فربتاج بالاحتفاظ « بالوضع الراهن » لحين وصول أوامر أخرى . فحاول فولتير الهروب بعد أن عيل صبره ، وفى ٢٠ يونيو ترك حقائبه مع ابنة أخته وفر هو وسكرتيره خلسة من فرانكفورت .

ولكن فربتاج لحق بهما قبل أن يجتازا الحدود الأدارية للمدينة ، وعاد بهما إليها وأودعهما سجينين فى فندق العنزة ، لأن « صاحب فندق الأسد أبى أن يستبقى فولتير أطول مما بقى عنده بسبب شحه الذى لا يصدق » (١٢٠) (فى رواية فربتاج) . واستولى آسرو فولتير على نقوده كلها ، وعلى ساعته ، وبعض جواهره التى يتحلى بها ، وصندوق نشوقه — الذى رد إليه سريعاً بناء على توسله لأنه قال إنه لا غنى لحياته عنه . وفى ٢١ يونيو وصل خطاب من فردريك يأمر بالافراج عن فولتير ، ولكن فربتاج رأى أن الأمانة فى أداء الواجب تقتضيه أن ينبىء الملك بمحاولة فولتير الهروب ، فهل يطلق سراحه رغم ذلك ؟ وفى ٥ يوليو وافق فردريك على الإفراج عنه ، وأطلق سراحه بعد اعتقاله خمسة وثلاثين يوماً . وفى ٧ يوليو غادر فرانكفورت إلى مينز ، وعادت مدام دنيس إلى باريس ، بأمل الحصول على إذن لفولتير بدخول فرنسا .

وكان نبأ اعتقاله قد ذاع ، فاحتفل به القوم وأشادوا به حيثما ذهب ، لأن فردريك لم يحبه أحد غير أخته فلهلمينا ، أما فولتير فهو رغم شيطنته كلها كان أعظم الأحياء من الشعراء ، والمسرحيين ، والمؤرخين . وبعد أن قضى ثلاثة أسابيع فى مينز رحل فى بطانة كبطانات الأمراء إلى مانهايم وستراسبورج (١٥ أغسطس إلى ٢ أكتوبر) حيث أمتع روحه بفكرة وجوده على أرض فرنسية . ثم مضى إلى كولمار (٢ أكتوبر) حيث زارته فلهمينا فى طريقها إلى مونبليه وطيبت خاطره « بالأنعامات » واسترد من عافيته ما أوحى إليه ببعض رسائل ظريفة لمدام دنيس التى كانت تشكو ورماً فى إحدى ذراعيها :

بالله يا طفلتى العزيزة ما الذى تريد ساقاك وساقاى أن تقول ؟ لو أنها كانت معاً لما شكت مرضاً ... إن فخذيك لم يخلقا للألم . فهذان الفخذان اللذان سيقبلان بعد قليل يلقيان الآن معاملة مخزية . (١٢١)

وكتب فى لهجة أكثر تواضعاً إلى مدام بومبادور يتوسل بنفوذها على لويس الخامس عشر ليسمح له بالعودة إلى باريس . ولكن ناشراً لصاً فى لاهاى كان قد نشر طبعة مشوهة سماها « موجز التاريخ العام » اختصر منها كتاب « مقال التاريخ العام » أو « مقال فى العزف » الذى لم يتمه فولتير ، وقد احتوى نقداً جارحاً للمسيحية . وبيع الموجز بسرعة فى باريس ، وقال لويس الخامس عشر لبومبادور « لست أريد أن يأتى فولتير إلى باريس »(١٢٢) وطالب اليسوعيون فى كولمار بطرده من تلك المدينة ، فحاول أن يسترضى أعداءه الكنسيين بتناوله القربان فى عيد القيامة . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل أن انضم أصدقاؤه لليسوعيين فى رميه بالنفاق . وكان تعقيب مونتسكيو « انظروا إلى فولتير الذى لا يعرف أين يضع رأسه » ثم أضاف « أن النفس الصالحة أغلى ثمناً من النفس الجميلة . » (١٢٣)

وفكر الفيلسوف المشرد ، بعد أن سدت فى وجهه المسالك ، فى الرحيل عن أوربا والإقامة فى فيلادلفيا . وكان معجباً بروح بن وجهود فرانكلن الذى وحد مؤخراً بين البرق والكهرباء « لولا أن البحر يسبب لى دواراً لا يطاق لقضيت بقية عمرى بين كويكرزى بنسلفانيا . » (١٢٤) وفى ٨ يونيو ١٧٥٤ غادر كولمار ووجد ملجأ فى دير سنون البندكتى باللورين . هناك علم أن دوم أوجستن كالميه رئيس للدير ، وأن بمكتبة الدير اثنا عشر ألف مجلد ؛ ووجد فولتير السلام وسط الرهبان ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو رحل إلى بلومبيير ، وشرب من مياهها فى خاتمة المطاف . ولحقت به مدام دنيس هناك ، وظلت منذ ذلك الحين سيدة (Mistrest خليلة) بيته على الأقل . واستأنف تجواله ، وعاد إلى كولمار ، ولم يجد فيها راحته ، فانطلق إلى ديجون ومكث فيها ليلة ، ثم إلى ليون التى أقام فيها شهراً (١١ نوفمبر إلى ١٠ ديسمبر). ونزل أسبوعاً ضيفاً على صديقه ومدينه القديم الدوق ريشليو ، ثم انتقل إلى فندق الباليه رويال ، ربما خوفاً من أن يؤذى سمعته . وذهب إلى أكاديمية

ليون وتلقى كل ماخلعته عليه من تكريم . وأخرجت بعض تمثيلياته على المسرح المحلى ، ورفع تصفيق الاستحسان معنويته . وفكر فى الإقامة فى ليون ، ولكن رئيس الأساقفة تنسان اعترض، فرحل فولتير عنها . وأيقن أنه قد يقبض عليه فى أية لحظة لو مكث فى فرنسا .

وعليه ففى ختام عام ١٧٥٤ ، أو مطلع عام ١٧٥٥ ، عبر جبال الجورا وألقى عصا التسيار فى سويسرة .

* * *

obeikan.com